406

HARLEQUIN

روايات أحلام

ضياع

سارة كريڤن

www.elromancia.com
مرمورية

ضياع

وجدت شيلي غرير نفسها على بعد أميال من ديارها ، مجردة من المال وحتى من جواز سفرها ، مرغمة على العمل في أجواء مشبوهة لا سبيل للهرب منها ... إلى أن ظهر آش برينان ؛

ماذا يفعل هذا الغريب الوسيم في مكان كهذا ؛

عرض آش عليها طريقة للخروج من هذا المكان . ولكن ما الذي يدفعه لإنقاذها ؛

هل يرغب فعلاً في حمايتها أم أنه يريد شيئاً في المقابل ؛

لبنان	3000 ل.ل	البحرين	1 دينار
سوريا	100 ل.س	السعودية	10 ريال
الأردن	1.5 دينار	مصر	8 جنيه
الكويت	750 فلس	المغرب	15 درهم
الإمارات	10 دراهم	تونس	2.50 دينار
قطر	10 ريال	عمان	1 ريال

ISBN 978-9953-15-374-3

روايات أحلام

تصدر عن شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م
المدير المسؤول: آمال سابا الهاشم

حقوق النشر والطباعة والتوزيع باللغة العربية
محفوظة لشركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.
بترخيص خطي من Harlequin Books S.A

كل الحقوق محفوظة، بما فيها نسخ الكتاب بكامله أو جزء منه بأي شكل من الأشكال
تم نشر هذه الطبعة بالاتفاق مع شركة Harlequin Books S.A

العلامة التجارية Harlequin وشعار Joey هما ملك شركة Harlequin Books S.A
وهما مستعملان هنا بترخيص منها

كل شخصيات هذه الرواية وهمية. أي شبه بين هذه الشخصيات وأشخاص
حقيقيين أحياء كانوا أم أمواتاً هو محض صدفة

العنوان الأصلي لهذه الرواية باللغة الإنكليزية:
The bedroom barter
First published in Great Britain 2003
Harlequin Mills & Boon Limited
© Sara Craven 2003
Translation © Dar El-Farasha - 2007
ISBN 978 - 9953 - 15 - 374 - 2

شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م. طريق المطار - سنتر زعرور -
ص.ب: 8254/ 11 هاتف/ فاكس: 450950-1-961- بيروت - لبنان
Email: info@darelfarasha.com - http:www.darelfarasha.com

أعزائي القراء

لأننا عوّدناكم دائماً على أجمل الروايات العاطفية... ولأننا نعرف أن قراءنا لا يرضون بأقل من الأفضل... ولأن هدفنا دوماً المحافظة على واحة حب تخفّف من وطأة الآلام والهموم في عالمنا... لهذا، اخترنا أن تكون هديتنا إلى قرائنا في بداية هذا القرن هي انضمامنا إلى أسرة هارلكوين Harlequin العالمية.

لماذا هذا الاختيار؟

لأن شركة Harlequin هي رائدة الروايات الرومنسية في العالم أجمع، وهي تتعاون مع أفضل الروائيات في هذا المجال، وتصدر شهرياً أكثر من ٧٠ عنواناً جديداً.

ستظل روايات أحلام على سابق عهدها من حيث اختيار القصة الشيّقة والأسلوب الرفيع واللغة السليمة... والتغيير الذي ستلاحظونه هو في زيادة عدد الروايات شهرياً، وتنوع الموضوعات لتناسب جميع الأذواق، وسيكون لمشاركتكم باختيار المواضيع المفضلة لديكم وبأسماء الروائيات اللاتي أحببتموهن، الدور الأساسي.

بكل إخلاص
أسرة أحلام

www.elromancia.com

ساره كريڤن

بدأت ساره كريڤن بالكتابة لشركة «ميلز آند بونز» سنة ١٩٧٥، وقد باعت منذ ذلك الحين ما يناهز السبعة عشرة مليون نسخة من كتبها في أنحاء العالم. وهي تهوى إلى جانب الكتابة، مشاهدة الأفلام والاستماع إلى الموسيقى والطهو، كذلك تناول الوجبات اللذيذة في مطاعم فخمة. تعيش ساره كريڤن الآن في مدينة «سومرسيت» وهي متمرّسة في متابعة برامج المسابقات التلفزيونية والمشاركة فيها.

١ - ورطة فظيعة

كان الشاطىء مزدحماً، والجوّ مفعماً برائحة الطهي والأنغام الموسيقية المثيرة.

وكان آش يسير بخطوات متزنة على الرصيف غير المستوي، وعيناه الزرقاوان الهادئتان تومضان لرؤية الإعلانات المرحة المضيئة متجاهلاً النظرات المقيّمة حيناً والمستغربة أحياناً.

كان على بعد ميل واحد من «سانت مارتينو» مرسى يخوت أصحاب الملايين، حيث توجد الملاهي الليلية والكازينوهات. إنما بدا وكأنه على بعد سنوات ضوئية عن ذلك المكان، فأيّ سائح يتهوّر ويجازف بالقدوم إلى هنا، عليه أن يلوذ بالفرار قبل أن يتعرض للسلب أو لما هو أسوأ.

كان آش يعرف هذا جيداً، بشعره الأشقر الداكن، الذي يصل إلى ياقة قميصه الأزرق القديم الذي يكشف عن صدره الأسمر، وبسرواله الحائل اللون الذي يلتصق بساقيه وورکيه. كما انتعل حذاءً قديماً ووضع في يده ساعة رخيصة.

كان طوله وعرض كتفيه، وهالة الاتزان ورباطة الجأش التي تحيط به، توحي برجل يمكنه حماية نفسه إذا اضطرّ إلى ذلك.

بدا كبحّار بحاجة إلى الاستجمام والترويح عن النفس. وقد انصبّ اهتمامه هذه الليلة على مكان يدعى «ماماريتا» حيث مرّ بألواح تحمل صوراً فوتوغرافية لفتيات، ومن ثم نزل درجتين إلى النادي حيث وقف وأخذ ينظر من حوله.

www.elromancia.com

رأى طاولات معدّة للرجال وخشبة مسرح صغيرة تؤدي عليها الراقصات رقصاتهن.

كان الجوّ مثقلاً بدخان السجائر. وعدا عن صوت البيانو الذي يعزف عليه رجل صغير الحجم حزين الوجه، لم يكن الزبائن يحدثون سوى القليل من الجلبة... وعند الباب، جلست امرأة بالغة الضخامة بثوبها الواسع المفتوح عند العنق الذي يغطي كتل لحمها الضخمة. كان شعرها الجعد مصبوغاً بلون أشقر داكن، وشفتاها مصبوغتين بلون قرمزي. لا بد أنها (ماماريتا). أومأت إليه: «هل دفعت؟».

رفع حاجبيه متسائلاً عن المبلغ المطلوب، قائلاً: «أريد شراباً فقط ولن أدفع للنادي».

فاتسعت ابتسامتها: «ستحصل على شراب يا فتى، وعلى فتاة جميلة أيضاً».

- سأرى إن كنت أريد مرافقة.

تشابكت نظراتهما لحظة هزت بعدها كتفيها: «كما تريد يا عزيزي».

وأشارت بيدها: «مانويل جهز طاولة لهذا الرجل الجميل».

سار مانويل، وهو طويل وسيم، نحو الطاولات المحيطة بالمسرح، لكن آش قال له وهو يجلس إلى طاولة في آخر الغرفة: «لا بأس بهذه».

هز مانويل كتفيه فيما استند آش إلى الخلف وعاد يشمل المكان بنظراته. كان يعلم أن ماماريتا تختار أفضل الفتيات اللاتي يصلن إلى «سانتو مارتينو». ويبدو هذا صحيحاً.

كانت الفتيات خليطاً من جنسيات مختلفة، جميعهن صغيرات في السن ومعظمهن جميلات.

ميّز اثنتين من أميركا الشمالية وبعض الأوروبيات، فضلاً عن الفتيات المحلّيات الشاردات في الموانىء هرباً من المزارع والحقول ينشدن بديلاً عن الزواج المبكر. وفكر ساخراً في أنهن عثرن على ما ينشدنه،

كابحاً شعوراً بالأسف. لم يحضر إلى هنا ليشعر بالعطف فلا وقت لديه لذلك. قال له مانويل بابتسامة ذات معنى: «هل أعجبتك واحدة منهن يا سيدي؟».

- لم أجد بعد وعندما أجد سأخبرك.

- كما تشاء، يا سيدي. تحت أمرك.

وأشار برأسه إلى ستارة خلف المسرح: «لدينا غرف خاصة... جداً حيث ترقص الفتيات لك وحدك».

وأضاف بجرأة: «أنا أرتّب الأمر، لقاء أجر طبعاً».

- هذا جميل. سأتذكر ذلك.

وحوّل اهتمامه عن ابتسامات الفتيات المشرقة ليركز على عازف البيانو الذي بقي مصراً على عزف موسيقى قديمة بالرغم من عدم مبالاة المستمعين.

كان عازف البيانو قد أنهى معزوفته وهم بالوقوف لتحية الجمهور فأدرك أن أحداً لم يصفّق فعاد ليجلس ويعزف بصوت مرتفع.

واهتز الستار وخرجت من خلفه فتاة.

عند خروجها تردد في القاعة زئير خافت، وحدّث آش نفسه باشمئزاز بأن الصيادين اشتموا رائحة الفريسة. وفجأة وقف وضاقت عيناه حين رآها بوضوح.

كانت شقراء، قصيرة القامة بالرغم من حذائها العالي الكعبين. كانت ترتدي ثوباً أسود قصيراً جعل بشرتها تتألق كالعاج.

لكنها لم تصعد إلى خشبة المسرح، بل أحنت رأسها قليلاً وتجاهلت الصفير والتعليقات ثم توجهت إلى البيانو لتستند بظهرها إليه، وكأنها مسرورة بمساندته لها، فيما أخذ العازف يعزف لحن (يقتلني برفق). كان جمالها فريداً، كما رأى آش وقد لفتت انتباهه كلياً. وعلى عكس شعرها الأشقر المنسدل على كتفيها، كان حاجباها وأهدابها سوداء، كما بدت

عيناها خضراوين حذرتين كعيني هرة. كانت وجنتاها فائقتي الرقة وشفتاها مرسومتين بلون وردي حار مثير. لكن الرعب ارتسم في عينيها.

لقد أدرك ذلك منذ لحظة دخولها. وشعر بخوفها الشديد أشبه ببيد باردة ملقاة على كتفه. ولاحظ الآن يديها الصغيرتين المشدودتين بين ثنايا تنورتها والابتسامة المرتبكة المتوترة على شفتيها.

بدت أشبه بحيوان صغير فاجأته أنوار سيارة فأصبح عاجزاً عن الحركة. لكن المشكلة لم تبلغ صوتها فأخذت تغني بصوت قوي وأجش قليلاً... صوت من النوع الذي يحب أن يسمعه الرجل في اللحظات الحميمة.

كان جمهورها يصغي إلى غنائها بشيء من التململ. فمهما كان صوتها جذاباً، المهم هو الوعد الذي يقدمه ثوبها. لم يصدقوا أن الأغنية وحدها هي المعروضة عليهم.

انتقلت إلى الأغنية التالية بسهولة، لكنها لم تعد تحدّق في الأرض بل رفعت رأسها عالياً، وبدت وكأنها تنظر بعيداً بشوق وحنين يتماشيان مع كلمات الأغنية.

وفي تلك اللحظة، فيما ارتجف صوتها قبل أن تسكت، تشابكت نظراتها مع نظرات آش من فوق رؤوس الحضور. وبقيت نظراتهما متشابكة لحظة طويلة تخطف الأنفاس. وخطر له أنه يعلم الآن لماذا جاء الليلة إلى هنا.

انتهى أداؤها، وأحنت رأسها بسرعة وخجل تجاوباً مع التصفيق الضعيف المتناثر، ثم عادت أدراجها من حيث جاءت. انتظر آش ليرى إن كانت ستعاود النظر إليه لكنها لم تفعل بل توارت ببساطة خلف الستار، تتبعها صيحات الاستهجان وخيبة الأمل.

أفرغ آش آخر ما في كأسه ثم وقف. نظرت «ماماريتا» إليه وهو يتقدم منها، وقد بدا في عينيها الحدّة والدهاء: «أتريد شيئاً أيها السيد؟».

فأجاب باتزان: «أريد المغنية».

فكرت قليلاً ثم سألته: «هل تريدها أن تجلس معك؟».

- أريدها في إحدى غرفك المنفردة، ماما. أريدها أن ترقص لي وحدي.

رفعت حاجبيها ثم أخذت تضحك: «إنها أحدث فتاة عندي، وهي ما زالت تتعلم. وأنا أدّخرها لزبون غني. على أيّ حال، لا يمكنك أن تدفع أجرها».

فقال بلطف: «بل أستطيع، جرّبيني».

فقالت: «يا للرجل المجنون! لماذا تنفق نقودك كلها عليها؟ يمكنك أن تختار فتاة أخرى، واحدة تحسن الرقص».

- أريدها هي. وسأدفع لك الثمن.

تأملته ملياً وفي عينيها عدم تصديق واضح: «ألديك هذا القدر من المال؟».

فقال وهو يخرج بعض الأوراق المالية من جيبه الخلفي: «ها أنت تعلمين أن لدي المال وأنا أعرف ما أريد».

جمعت المال بسرعة ثم قالت: «هذه سمسرة لي أنا. بقي عليك أن تدفع لها أجرها، ادفع ما تراها تستحقه».

وعادت تقهقه بصوت خافت قبل أن تردف: «علّمها بعض الدروس!».

- نعم سأعلّمها دروس الحياة كلها... هل لديها اسم؟

دسّت الأوراق المالية في صدرها ثم وقفت: «اسمها ميكيلا. سأذهب لأخبر مغنيتك. إنها فتاة محظوظة».

أخذ ينظر إلى «ماماريتا» وهي تتوارى، متمنياً أن يكون هذا هو رأي الفتاة أيضاً. وعاد إلى مائدته حيث جلس ينتظر.

* * *

جلست تشيلي على المقعد أمام المرآة، وتمسّكت بالطاولة حتى توقفت عن الارتجاف. لقد مضى عليها شهر تقريباً منذ ابتدأت تغني في النادي، ويفترض بها أن تكون قد اعتادت الأمر. لكن هذا لم يحدث، وقد لا يحدث أبداً.

والسبب في ذلك هو وجوه الرجال... تلك الأعين الجائعة التي تلتهمها والكلمات التي ينادونها بها والتي كانت ممتنة لأنها لا تستطيع أن تفهمها جيداً.

سألت ذات مرة جاسينتا، وهي إحدى الراقصات الرئيسيات، والوحيدة التي تجمعها بها صداقة هامشية: «كيف تحتملين هذا؟».

فهزت هذه كتفيها وقالت بخفة: «أنا لا أرى. أنا أبتسم لكنني لا أنظر إليهم. أنظر خلفهم وأفكر في أموري الخاصة. إنها أفضل طريقة».

بدت هذه نصيحة حكيمة. وقد نجحت مع تشيلي حتى هذه الليلة عندما وجدت نفسها، بالرغم عنها، منجذبة بعنف إلى نظرات رجل يجلس وحيداً إلى إحدى الموائد الخلفية. كان هذا أمراً غير عادي حيث أن معظم الزبائن يحبون الجلوس في المقدمة.

بدا واضحاً أنه أوروبي، ولم يكن الكثير من الأوروبيين يرتادون النادي.

كما كان جذاباً إلى حد خطير، تغطي وسامته الظاهرة صلابته التي شعرت بها عن بعد.

وفكرت بارتباك كيف أنه جعلها تنظر إليه... ولكن، ما الذي جعله يأتي إلى مكان مثل «ماماريتا» هذا؟ كانت معرفة تشيلي بالرجال محدودة، لكن الغريزة أخبرتها بأن هذا آخر رجل في العالم بحاجة لأن يشتري ما يحتاجه من لذّات. لكنها أخذت تحدث نفسها بأن الأمور ستسوء للغاية إذا راحت تحلم بأحد هؤلاء الزبائن. وكانت الأمور سيئة بما يكفي فحياتها كلها كابوس لا نهاية له. ورفعت عن رأسها الشعر الأشقر

المستعار المقزز وتخللت بأصابعها شعرها الأسود القصير.

كانت «ماماريتا» عنيدة للغاية في هذه المسألة، فالسمراوات برأيها لسن مثيرات في هذا الجزء من العالم، والرجال الذين يأتون إلى ناديها يطلبون فتيات شقراوات. بدا لها هذا تنازلاً بسيطاً حينذاك، خاصة أنها في حاجة ماسة إلى مسكن وعمل تعتاش منه... ما جعلها توافق على أي شيء، لا سيّما بعد أن منحتها فرصة كي تغني. ظنت أن هذه هي نهاية المصائب التي حلّت بها لتجد أنها لم تكن سوى البداية.

وكانت قد حدثت نفسها بثقة بالغة بأنها لن تضطر لأن تمكث طويلاً في هذا النادي. يكفي أن تجمع ثمن تذكرة سفر إلى خارج البلاد.

لكن الأمور لم تسر على هذا النحو. بدت لها النقود التي كسبتها في البداية مناسبة تماماً. ولكن ما إن ألزمتها «ماماريتا» بدفع أجرة الغرفة الصغيرة، المليئة بالصراصير، والتي تقع على سطح النادي، وأجرة الملابس التي أصرت عليها أن تلبسها، فضلاً عن أجرة عازف البيانو، حتى رأت أن ما يبقى لها من النقود يكاد لا يكفي ثمن طعام لها.

كما أن «ماماريتا» صادرت جواز سفرها، وهو كل ما بقي لها في هذا العالم، فجعلتها سجينة حقيقية. وأدركت بمرارة أنها سارت إلى الفخ بقدميها.

على أيّ حال، يمكنها طبعاً الحصول على مزيد من المال، كما أوضحت لها «ماماريتا» منذ البداية. يكفي أن تكون تشيلي ودوداً وتسامر الزبائن، لكن الفكرة في حدّ ذاتها تجعل جلدها يقشعر. كما أنّ جاسينتا أنذرتها وقالت لها إن تحصيل المزيد من النقود، يعني أن «ماماريتا» ستأخذ المزيد منها. وإذا ما جلست مع الزبون اليوم، فستضطر للتنازل أكثر في اليوم التالي. وهي لن تتمكن من الخروج من هذا المكان إلا إذا شاءت «ماماريتا»: «فهي التي تختار متى وإلى أين تذهبين. وأنت لم تنهي مدة خدمتك بعد».

حينذاك، سكتت جاسينتا وهي تنظر إلى تشيلي باتزان، لتتابع بعد لحظة: «ثمة أمكنة أسوأ من هذه بكثير. صدقيني! لا تحاولي أن تهربي لأنها ستعثر عليك، عندئذ، ستذوقين من الألم والحزن والندم ما لم تحلمي به في حياتك».

وفكرت تشيلي بكآبة في أنها وصلت إلى هذه المرحلة فعلاً. تنهدت ثم وقفت وسارت إلى المشجب في زاوية الغرفة حيث تعلّق ملابسها، وأخذت تقلّبها.

كانت تغني مرتين كل مساء، وفي كل مرة بملابس مختلفة. عندما بدأت العمل كانت ترتدي ملابس سهرة، لكن هذه سرعان ما استُبدلت بملابس مكشوفة كالتي ترتديها الراقصات، ما حدّ من حرية الاختيار بشكل بالغ. عضت شفتها بقوة حين وصلت إلى آخر مجموعة من الملابس وهي عبارة عن تنورة قصيرة من الجلد الأسود اللامع، تعلوها صديرة محبوكة من خرز لامع صغير. وحدّثت نفسها بحزم وعبوس أنها ستخرج من هنا بأيّ شكل ومهما بلغت خطورة المحاولة وأنها من الآن فصاعداً لن تثق بأي شخص لا سيّما الرجال...

وارتعش جسدها وهي تفكر في رامون. بذلت جهدها لئلا تفكر فيه، لكن هذا لم يكن ممكناً دوماً. إنها بالكاد تتذكر شكله، أو نبرة صوته الآن. وستنسى يوماً ما، الوهم المؤلم بأنها كانت تحبه.

وأقرّت بأن ما كان بينهما يبدو لها بعيداً... وكأنه حدث لشخصين آخرين. لكن هذا ليس صحيحاً وهو السبب في وجودها ههنا، ووقوعها في هذه الورطة الفظيعة.

قد يكون في عودتها من حيث أتت إذلالاً، لكنها ستفيدها أيضاً. على أيّ حال، كان عليها أن تهرب من حياتها في إنكلترا، ومن المستقبل المعدّ لها. وما زالت مقتنعة بضرورة الخلاص من ذاك الوضع. لكن من سوء حظها أنها، ومن خلال رامون، هربت من السيء لتقع في الأسوأ: إلاّ

أنها ستمسك مجدداً بزمام الأمور في حياتها.

حدّثت نفسها بعزم بأنها ستنجو. وعندما عادت تعلق الثوب الأسود على المشجب، تحركت الستارة الرقيقة التي تفصل غرفة الملابس عن غرفتها ودخلت لينا، إحدى الراقصات.

- «ماماريتا» تريد أن تراك في مكتبها.

رفعت تشيلي حاجبيها، فهذه هي المرة الأولى التي تستدعى فيها بهذا الشكل. كانت الفتاة منهن تستدعى عادة بهذا الشكل بسبب سوء تصرف منها. وراحت ترتعش رغماً عنها، فقد رأت على وجوه فتيات عدة آثار الخدوش والرضوض، كما رأتهن نازفات الأفواه بعد مواجهة «ماماريتا» ذات اليدين المثقلتين بالخواتم.

وكانت تعلم أن الراقصات يهوين نشر الشائعات، فحاولت أن تسألها بصوت متزن: «أتعلمين السبب؟».

لمعت عينا لينا بالحقد: «ربما عليك أن تبدئي بالعمل لكسب عيشك يا حلوتي، مثلنا جميعاً».

واجهتها تشيلي رافعة الرأس: «لكنني أعمل فعلاً، بصفتي مغنية».

فقالت لينا ساخرة: «أحقاً؟ ربما أوشك ذلك أن يتغيّر، فثمة رجل يريد التعرف إليك».

فقالت تشيلي بصوت أجش وقد شحب وجهها: «لا. هذا غير ممكن».

عندئذ قالت الفتاة، بعدم اكتراث: «قولي هذا «لماما ريتا» ولا تدعيها تنتظر».

اقتربت تشيلي من المكتب في الطابق الثاني وقلبها يخفق بقوة. لا يمكن لهذا أن يحدث، ولا بد أن لينا تكذب فـ «ماماريتا» أخبرتها منذ البداية بأن لديها الكثير من الفتيات الراغبات في النادي، وأنها لن تتعرض لأي ضغط لتفعل ما لا تريده. سمعت وقع أقدام على السلم، وبرز مانويل

فتنحّت تشيلي جانباً لتدعه يمرّ، محاولة ألاّ تتراجع وتبتعد بشكل واضح. منذ بداية عملها في هذا المكان، وجدت مانويل مشكلة فبالرغم من أن وسامته الفظة لم تحملها على صده منذ البداية، إلا أن تودده الدائم إليها ومحاولاته المتكررة للتحرّش بها جعلتها تشعر بالاشمئزاز.

في أول ليلة أمضتها في غرفتها الضيقة دفعتها غريزتها إلى تثبيت كرسي تحت مقبض الباب. ومع ساعات الصباح الأولى، استيقظت على حركة خفيفة أمام الباب، وعلى صوت مقبض الباب وهو يتحرك عبثاً. ومنذ ذلك الحين وهي تتخذ الاحتياطات نفسها.

ولم تجد فائدة من الشكوى لماما ريتا لأن الفتيات يقلن إن مانويل ابن أختها، حتى أن بعضهن قلن إنه ابنها.

رمقها بنظرة ماكرة وهو يحييها: «مرحباً يا حلوتي».

فأجابت تحيته باختصار: «مساء الخير».

اتسعت ابتسامته: «يا لعلوّك، وكبريائك... كوني طيبة مع مانويل المسكين! قد تغنين أغنية مختلفة، وستغنينها لي».

كبحت رعشة اشمئزاز تملكتها وهي تجيب: «لا تنتظر من دون جدوى».

كان باب المكتب مفتوحاً. وماما ريتا جالسة إلى مكتبها تستعمل الكمبيوتر النقال، فحيّت تشيلي بابتسامة صادقة: «كنت رائعة الليلة. وقد أعجب بك أحد الزبائن فطلب أن ترقصي له على انفراد».

توقف قلب تشيلي عن الخفقان: «هل طلب أغنية خاصة؟».

فقالت المرأة بجفاء مفاجىء: «أنت تمزحين، يا عزيزتي. إنه يريدك أن ترقصي له».

وحركت جسمها الضخم تمثل لها حركات الرقص بشكل مضحك.

هزّت تشيلي رأسها وقد جف فمها فجأة: «أنا لا أحسن الرقص ولم أتعلمه، حتى أنني لا أعرف كيف...».

فقاطعتها المرأة: «لكنك راقبت الراقصات... كما أنه لا يريد رقصة باليه راقية. لديك جسد جيد فاستعمليه».

قالت بلهفة: «لكنك تعهدت لي بأنني سأعمل بصفة مغنية، ولدي عقد عمل...».

فضحكت المرأة ساخرة: «نعم، لكن الشروط تغيرت لتوّها».

قالت متظاهرة بعدم المبالاة وهي تخفي يديها في تنورتها لئلا يظهر ارتجافهما: «لكنك بهذا تخالفين القانون، ما يلغي أي اتفاق بيننا، فإذا أعدت إلي جواز سفري، سأرحل في الحال».

هزت المرأة رأسها بشيء من الأسف: «أتظنينني ساذجة إلى هذا الحد؟ أنت تحلمين يا عزيزتي».

- لقد نقضت العهد الذي بيننا وانتهى الأمر.

- هذا النادي لي وأنا أضع القانون هنا.

ومالت المرأة إلى الأمام وعيناها تلمعان قبل أن تضيف: «لن تذهبي إلى أي مكان، لأنني سأحتفظ بجواز سفرك أمانة عندي حتى تدفعي ديونك هنا».

جمدت تشيلي مكانها فجأة: «لكنني دفعت أجرة السكن وكل شيء، مقدماً».

فتنهدت المرأة: «لم تدفعي ما عليك يا عزيزتي. فهنالك فاتورة العلاج».

سألتها الفتاة بارتباك: «فاتورة العلاج؟ ما الذي تتحدثين عنه؟».

فقالت المرأة مؤنبة: «يا لضعف ذاكرتك! عندما جئت إلى هنا استدعيت طبيباً ليفحصك ويرى إن كان لديك التهاب رئوي».

تذكرت تشيلي عابسة رجلاً قصير القامة، أحمر العينين، ذا يدين رطبتين، انحنى فوقها مترنحاً وقالت: «أتذكر ذلك».

عندئذ ناولتها المرأة ورقة: «خذي. هذا هو حسابك».

www.elromancia.com

أخذت تشيلي الورقة وفتحت فمها ذاهلة وهي تقرأها، ثم قالت بصوت متألم: «لكن، لايمكن أن يطلب كل هذا فهو لم يبقَ سوى دقيقتين تقريباً. كما أنه لم يصف لي أياً من الأدوية الواردة هنا... كان مملاً وأنت تعلمين ذلك».

- ما أعلمه هو أنك كنت مريضة يا فتاة وبحاجة إلى طبيب. بيدرو الفاريز رجل طيب.

وسكتت تتفحص وجه الفتاة برضى هادىء: «لن ترحلي وأنت تدينين لي بكل هذا المال، يا عزيزتي. عليك أن تعملي لتأمينه. هذا الرجل الذي يريدك لديه مال وفير لينفقه، كما أنه جميل المظهر».

وأخذت تهتز ضاحكة: «كوني لطيفة معه فتربحين كل ما تحتاجينه في ليلة واحدة».

هزت تشيلي رأسها بشيء من العنف وضمّت ذراعيها إلى صدرها وكأنها تحمي نفسها: «لا. لا أستطيع. لا أريد، ولا يمكنك أن ترغميني».

فحملقت المرأة فيها بعينين مليئتين بالحقد: «لا؟».

وضربت براحتها على المكتب بعنف: «لقد صبرت عليك لكن هذا يكفي. ستفعلين ما أريده منك... أفهمت؟ أو ربما عليّ أن أعطيك لمانويل أولاً، لكي يعلمك العرفان بالجميل. أتريدين هذا؟».

قالت تشيلي بصوت لا يُسمع: «لا. لا أريد».

فقالت المرأة: «أو أرسلك إلى صديقتي كونزويلا التي لن تطلب منك أن ترقصي أو تغني».

وانفجرت ضاحكة، فتملك الذعر تشيلي وهي تتذكر ما سمعته من الفتيات في غرفة الملابس. أي شيء ما عدا هذا. أحنت رأسها منهزمة: «لا أرجوك».

فأومأت المرأة راضية: «بدأت تفكرين الآن بتعقل. ستأخذك لينا إلى

الغرفة، ثم أرسله أنا إليك».

كانت لينا تنتظر في الممر خارج المكتب. نظرت إلى تشيلي بابتسامة ازدراء عريضة: «هل ستنزلين إلى العالم الحقيقي، يا حلوتي؟ ربما، بعد هذه الليلة، لن تنظري إلينا باستعلاء».

فقالت تشيلي: «هل كنت أفعل هذا حقاً؟ آسفة لم أكن أدرك ذلك».

نظرت إليها لينا بحدة: «حذار أن تهزئي مني، فماماريتا لن تجد هذا مضحكاً».

فأجابت تشيلي بجهد: «لا. سأحاول أن أنتبه للأمر».

قالت لينا وهي تفتح باباً في نهاية الممشى: «ما المشكلة على أيّ حال؟ «ماما» لا تدير جمعية خيرية هنا، ولا بد أنك كنت تعلمين هذا. وإلاّ فلماذا جئت إذن؟».

نظرت تشيلي من حولها، وشعرت بأصابع باردة تمرّ على ظهرها... لم تكن الغرفة واسعة، وقد شغلها سرير فسيح منجد بجلد أحمر داكن.

ردّت بضعف: «لم يكن قدومي إلى هنا باختياري. لقد تعرضت للسلب، فذهبت إلى مركز الشرطة. قال لي أحد رجال الشرطة إنه سيجد لي مكاناً آمناً أمكث فيه ريثما يعثرون على السارق ثم جاء بي إلى هنا».

هزت لينا كتفيها وقالت: «هذا يدل كيف تحصل ماماريتا على معظم فتياتها. إنها تدفع لرجال الشرطة لكي يرسلوا لها ما يجدونه».

فعضت تشيلي شفتها: «شكراً».

سارت لينا إلى الباب ثم ترددت: «اسمعي يا حبيبتي. الأمر ليس صعباً. ابتسمي وتظاهري بأنك تستمتعين بالأمر».

في السابق، ظنت أنه لن يحدث لها أسوأ مما حدث! هل يمكن للإنسان أن يخطىء إلى هذا الحد؟

وتملكتها مرارة ساخرة.

- إذا وجدت الأمر صعباً، فثمة زر لطلب النجدة تحت الطاولة،

www.elromancia.com

لكن لا تضغطيه إلا إذا كنت بحاجة ماسة لذلك، وإلا فلن يعجب هذا مانويل. وأنت لا تريدين أن تغضبيه. فهو رجل سيء للغاية. والآن، حظاً سعيداً.

وحركت أصابعها بتحية وداع ساخرة وخرجت. كانت الجدران مغطاة بستائر تصل إلى الأرض فلم تستطع أن تعرف موقع النافذة، هذا إذا كان ثمة نافذة. ومن خبرتها الماضية أدركت أنها ستكون مقفلة حتى لو تمكنت من أن تجدها، قبل أن يجدها هي الزبون. كانت بحاجة ماسة إلى هواء نقي، فجوّ الغرفة مثقل برائحة نوع من العطر. راحت تسير في أنحاء الغرفة، وكعبا حذائها يغوصان في السجادة السميكة الناعمة. وعندما أخذت ترفع الستائر لم تجد سوى الجدران ما زادها إحباطاً.

لم تكن واثقة من اللحظة التي شعرت فيها أنها ليست وحدها في الغرفة.

لم تسمع صوت الباب وهو يُفتح، ولا بد أن السجادة خنقت وقع قدميه. ومع ذلك كان هناك... خلفها. ينتظر. كانت واثقة من ذلك وكأنه اجتاز الغرفة ووضع يده على كتفها.

شعرت للحظة بأن أنفاسها اختنقت في صدرها. تركت الستارة التي كانت ترفعها لتسقط مكانها ثم استدارت ببطء لتواجهه. توقفت وقد اتسعت عيناها غير مصدقة عندما عرفته. وعادت تتأمله مرة أخرى فرأت فيه رجلاً هادئاً صلباً حسن المظهر... بأنفه المرتفع وخطوط فكه ووجنتيه القوية. كان وجه رجل لا يقبل الرفض.

جلس على الأريكة بكل راحة، وعلى فمه القوي شبه ابتسامة. فتملكها خوف لم تعرف مثله في حياتها... وراح جسدها يرتجف، وقد تملكها ارتباك بلغ حد الشعور بالغثيان. ومع ذلك، وللحظة واحدة، كان الشعور الطاغي لديها هو خيبة الأمل.

ظنت أنه دخل النادي سهواً، لكنها كانت مخطئة. وهو ليس أفضل

من أولئك المحتشدين حول خشبة المسرح. وتملكها أسف شديد.

قال برقة: «مساء الخير، يا ميكيلا».

لم تستطع أن تنطق بكلمة، أومأت برأسها بجواب مرتبك مختصر.

كانت تعلم أن «ميكيلا» هو اسمها في هذا المكان... إنه هويتها... وغطاءها. إن تمكّنت من أن تختبيء خلفه، فقد تقنع نفسها بأن شيئاً من هذا لا يحدث لها هي، وأنها شخصية مختلفة تماماً، وفي مكان آخر، تماماً كما تفعل وهي تغني... وبذلك ستتمكن، بشكل ما، من أن تحتمل...

بقي صامتاً لحظة، ونظراته الهادئة تشملها ببطء، فشعرت بجلدها يحترق تحت نظراته. تعلم أن عليها أن تبدأ بالتظاهر، وبإمكان ميكيلا أن ترغم فمها على الابتسام، لكن تشيلي وجدت ذلك مستحيلاً رغم أن هذا ليس أسوأ ما يمكن أن يحدث لها. فخارج هذه الغرفة، وفي العالم الحقيقي، ينتظرها التهديد بمانويل، كونزويلا وما يعنيه ذلك من أمور مرعبة لا يمكن تسميتها.

أخذت تفكر في أن عليها أن تفعل هذا وأن ليس أمامها خيار آخر...

اتسعت ابتسامته قليلاً وقال: «أليس من المفروض أن تقدمي لي شراباً؟».

- نعم.

وسارت إلى المنضدة متعثرة قليلاً بسبب السرعة. وفي رأسها تردد صدى صوت فتاة أخرى، المضيفة في منزل والدها، الفتاة التي أرادت أن تتركها خلفها.

شخص ما قال لها ذات مرة أن تتنبه إلى ما تتمناه، لأنه قد يتحقق.

راح يتأملها بعينين نصف مغمضتين، ثم قال: «أعلم أن بإمكانك أن تغني. فهل لنا أن نكتشف مواهبك الأخرى؟».

واستند إلى الوسائد خلفه. كان رجلاً يعد نفسه للمتعة وسألها

www.elromancia.com

بلطف: «هل نبدأ الآن؟».

لم يكن هذا التماساً بل أمراً فأحنت رأسها بخضوع وجاءت لتقف أمامه ثم ببطء شديد بدأت تتحرك.

٢ - الفرار

عندما أخبرت ماماريتا أنها لا تحسن الرقص لم يكن هذا صحيحاً. فالرقص كان هوايتها المفضلة في ذلك الجزء البعيد من حياتها.

حينذاك، كانت تقصد النوادي وأماكن اللهو حيث الموسيقى الشعبية، والحياة الصاخبة، فتستعمل طاقتها الجسدية المحمومة في طرد الإحباط الذي يتملكها حيال فشل مهنتها في الغناء... فضلاً عن القيود الأخرى المفروضة على حياتها، بصفتها ابنة أبيها.

لكن هذه الموسيقى لم تكن مماثلة لذلك النوع الذي اعتادته على الإطلاق. فهذه الموسيقى بطيئة ومثيرة للغاية، ولم يكن المقصود منها أن تحضّ على النسيان، بل أن تغري الرجل الذي يراقبها ليفتح محفظة نقوده ويدفع ثمن المزيد من العرض.

وهذا ما عليها أن تقوم به لئلا تموت جوعاً.

حاولت بلهفة أن تتذكر كلمات جاسينتا: ابتسمي، ولكن لا تنظري. ارفعي الحواجز الذهنية واحتفظي بنظراتك الشزرة للدفاع عن نفسك وإيقاف الرجل عند حده. واكبحي مشاعرك حيال كل ما يتبع ذلك.

وخاطبت نفسها تذكّرها بأن هذه الفتاة ليست هي، بل ميكيّلا وهي غير موجودة أصلاً. ولهذا، ما من شيء يحدث لها يمكنه أن يصيبها بضرر.

وهذا لا يعني أن نظرات عيني الزبون الزرقاوين المتأملتين عبّرت عن أي شهوة حقيقية أو حتى اهتمام خاص بغنائها.

بدا وكأنه يفكر في أمر آخر.

www.elromancia.com

فكرت تشيلي، بارتباك، في أنه طلبها هي بالذات. فلماذا لا ينظر إليها؟

آه، يا إلهي... أريد فقط أن يمرّ هذا الأمر على خير، وإلا ستجعلني ماماريتا أتألم.

سألها بلطف: «لماذا لا تقتربين مني أكثر؟ أم أن هذا يكلف مزيداً من النقود؟».

هزت رأسها ولم تثق بصوتها لتتكلم، فتابع يقول: «أنا لا أعض، إلا إذا طُلب مني ذلك بشكل واضح، فلا تخافي. على أيّ حال، أعتقد أن القوانين تسمح لي فقط بأن أنظر...».

أي قوانين تلك؟ أتراه مجنوناً أم ساذجاً؟

وأضاف بكسل: «أو بإذن منك، على الأقل. وأعترف بأن هذا لا يبدو محتملاً، حالياً».

وأخرج محفظة نقود: «ربما هذه سترقق قلبك...».

وسحب من المحفظة ورقات نقدية على الطاولة: «وهكذا، ربما بإمكاننا... أن... نزيد ما بيننا قليلاً؟ فقط لئلا تضيع أمسيتي... تماماً».

دب الذعر في نفسها وهي تفهم مغزى كلامه.

قال: «أنا بانتظارك... يا ميكيلا».

إذا بدا غير مهتم من قبل، فقد منحها انتباهه الكامل الآن... فمه بدا صلباً بشكل غريب، والعينان الزرقاوان لا تعرفان التساهل... بدا وكأنه يتفحصها تحت المجهر، من دون أن يهتم بما رآه. دارت ببطء أمامه، فيما أخذ ذهنها يسير نحو حافة التشوش.

أخذت تتوسل إلى الله ألاّ يدع ذلك يحدث لها... أن يدعها تستيقظ سريعاً من هذا الحلم...

وفجأة، تجمّد كيانها كله. وتلاقت عيناها بعينيه بنظرة امتزج فيها

التوسل بالتمرد الصريح. وقالت بصوت أجش: «لا أستطيع... أنا آسفة، لكنني فقط... لا أستطيع».

وسقطت على السجادة بعد أن عجزت ساقاها عن أن تحملاها، ثم غطت وجهها بيديها.

توقّعت ردة فعل غاضبة منه، وكانت تعلم أن هذا عادل تماماً. يمكنه حتى أن يثور عليها، أو أن يسير إلى الباب ويستدعي ماماريتا... أو حتى مانويل. عضت شفتها السفلى حتى تورمت عندما تذكرت العقوبة التي ستلقاها.

هذا لن يشكّل فارقاً بالنسبة إلى قرارها. وأدركت بهدوء غريب، ومهما كانت نتيجة رفضها فهي لن تستسلم لهذا الرجل أو لغيره.

هي لا تريد أيّ علاقة يمكن أن يشتريها المال. إن الموت أسهل عليها...

رغم أن الموت لن يكون أسهل الأمور التي ستحدث لها.

بدا الصمت في الغرفة من دون نهاية. لعله خرج بالهدوء نفسه الذي دخل به وغامرت برفع بصرها. لقد ذهب ليشكوها ويطالب بالمال الذي دفعه.

لكنها وجدته هنا، مستلقياً على الأريكة من دون أن يبدو عليه التأثر.

وإذا كان غاضباً أو خائب الأمل فقد أخفى هذا جيداً. وعندما تكلم أخيراً، بدا في لهجته شيء من التسلية: «ألم تفكري قط في تغيير عملك؟ إذ يبدو عليك عدم الالتزام بمهنتك الحالية».

استطاعت أن تقف وهي تحملق فيه: «إياك أن تضحك. إياك أن تجرؤ على الضحك مني... أيها النغل».

ووقف هو أيضاً. كان طويلاً، فوجدت نفسها مضطرة لرفع رأسها لتنظر إليه. واستاءت لذلك.

قال بخشونة مفاجئة: «الحق معك. هذه ليست مادة للضحك. وربما

www.elromancia.com

من الأفضل ألاّ تنعتيني بأيّ اسم. اجلسي».

أشار إلى الأريكة، فتراجعت خطوة إلى الخلف وهي تقول: «كلا».

- افعلي ما أقوله لك قبل أن تقعي مرة أخرى.

هزت رأسها وقالت: «متاعبي بدأت لتوّها ومن الأفضل أن أذهب الآن. أتريدني أن أرسل إليك إحدى الفتيات الأخريات؟».

- لو شئت ذلك لطلبت إحداهن منذ البداية. لكنني اخترتك أنت.

عضت شفتها تمنعها من الارتجاف: «أعرف هذا وأنا آسفة، ظننت أن بإمكاني أن أقوم بذلك... لقد نويت هذا حقاً... ولكن...».

- وأنا أيضاً ظننت ذلك للحظة... كدت تخدعينني. على أيّ حال، أحاول أن أعتاد على خيبة الأمل هذه.

وابتسم بجفاء ساخر، فحدّقت فيه: «أتريد أن تقول إنك كنت تعلم أنني لن أنجح في هذا؟».

وارتجف صوتها، فقال: «طبعاً. والآن اجلسي».

أطاعته مكرهة وقد بان الشك والتمرد في نظرتها. ما الذي يجري هنا؟ لقد بيعت وقُبض ثمنها، فلماذا لم يصر عليها لتنفيذ الصفقة؟ وكيف عرف أنها لن تفلح؟

وتعمّد الابتعاد عنها إلى الطرف الآخر من الأريكة قبل أن يقول: «أخبريني، أتظنين أن في هذه الغرفة ما يخيف؟».

فشهقت: «ما الذي تتحدث عنه؟».

قال بشيء من التوتر: «هل تستعمل ماماريتا كاميرات؟ ميكروفون؟ فتعرف ما يحدث؟».

هزت تشيلي رأسها ببطء: «لا أظن ذلك وإلا لذكرت الفتيات الأخريات الأمر».

فأومأ: «هذا حسن».

وإذ شعرت باستمرار تفحصه لها، أخذت تشد تنورتها إلى الأسفل

بشكل غريزي ثم سألته بتردد: «لماذا تستمر في تفحصي؟».

فأجاب: «لأنني دفعت ثمن هذا ولي الحق في أن أستغل هذا الوقت لمصلحتي».

نظرت إليه بذهول: «هل هذا كل ما تريده؟».

- هذا يكفي، إلا إذا شئت أنت القيام بالمزيد.

ساد الصمت لحظة قالت بعدها بصوت خافت: «كان علي أن أدرك ذلك».

فقال بهدوء: «في الواقع، كنت أتمنى أن ترفعي هذا الشعر المستعار عن رأسك، أم لعلك تريدين أن تدّعي أنه شعرك الطبيعي؟».

أجفلت ثم استغرقت في الضحك: «لا أبداً. هذا ليس شعري، لكن ماماريتا أرغمتني على وضعه».

وجذبت الشعر المستعار وألقت به جانباً ثم تخللت شعرها الأسود بأصابعها. فقال بلطف مستحسناً: «هذا جيد. إنه تحسّن بالغ».

سرى الدفء في ملامحها ولم تتكلم. ما زالت لا تفهم أو تثق بسلوكه. لم يكن يبعد عنها كثيراً ولعله يهدئها بمنحها شعوراً زائفاً بالأمان. على أيّ حال، لا يمكنها أن تشعر بالارتياح... ويبدو أن هذا لم يفته فقال بلطف: «أنت أشبه بسلك مشدود إلى أقصى حد».

- هل هذا يدهشك حقاً؟

- لا. إنما يحيرني قدومك إلى هذا الجحيم. أنا واثق من أنك ستخبريني أن هذا ليس من شأني، لكن هذا الخيار خيار سيء إلى حد خطير.

فقالت غير مصدقة: «خيار. هل أنت مجنون؟ هل تصدق حقاً أنه لو كان لي الخيار لوضعت قدماً في مكان كهذا؟».

- إذا كان هذا صحيحاً فلماذا تبقين هنا؟

- لأنني لا أستطيع الرحيل. ليس لدي نقود أو جواز سفر أو خيار

www.elromancia.com

آخر.

رفع حاجبيه: «هل تعرضت للسلب؟».

فأحنت رأسها: «أخذت ماماريتا جواز سفري، وشخص آخر... أخذ نقودي. والنتيجة كانت طردي من الفندق مع احتفاظهم بأمتعتي».

سكتت قليلاً ثم عادت تقول: «كنت أعاني من المرض، ما منعني من التفكير بشكل صحيح».

لم تقل له إن رامون هجرها في الفندق تاركاً إياها من دون مال، فهي لا تستطيع أن تتحدث عن ذلك، عن حماقتها المهلكة وإلا أصابها الانهيار... وفقدت أعصابها أمام هذا الغريب. وبدلاً من ذلك، انتصبت في جلستها: «كنت أعلم أن عليّ أن أعثر على القنصلية البريطانية بأسرع ما يمكن، فأوقفت سيارة شرطة لكي أسألها عن الطريق».

- لم يكن هذا أمراً حكيماً.

- هذا ما اكتشفته. في البداية هددني رجل الشرطة بالسجن بتهمة التشرد، ثم بدا عليه اللين وقال إن القنصلية مقفلة هذا النهار، لكنه سيأخذني إلى مكان آمن.

وحاولت أن تبتسم: «حتى أنني شكرته. وهكذا أحضرني إلى هنا، لأبقى منذ ذلك الحين».

فقال بجمود: «لم يكن ذلك يوم سعدك».

- لا. لكنني أعرف أماكن أسوأ، لأن ماماريتا هددتني بإرسالي إليها إذا لم أخضع لأوامرها. كان بإمكاني أن أنتهي في أحدها بدلاً من هنا.

وتهدّج صوتها وهي تضيف: «لقد صدقت حقاً أنها ستدعني أرحل حتى أنني وقعت عقداً معها بأن أغني هنا لأكسب ما يكفيني لتسديد كلفة إقامتي والرحيل. كم يمكن للإنسان أن يكون ساذجاً».

وحاولت أن تضحك، فقال بجفاء: «ماماريتا تعتقد أن فتياتها من مقتنياتها تستغلهن وعليهن أن يكن رهن إشارتها. لكن... هل تريدين

أن تبقي هنا بصفتك إحدى هذه المقتنيات؟».

- أتعني لماذا لا أهرب؟ لكنني لا أستطيع أن أبتعد كثيراً بدون جواز سفر، كما يمكنها أن تستعيدني بسهولة أو ترسلني إلى صديقتها كونزويلا.

وارتجفت. فقال برقة: «إلى أين تحبين أن تهربي في عالم مثالي؟».

رفعت رأسها: «لو كان لي الخيار... إلى آخر الدنيا».

فقال: «لا يمكنني أن أعدك بهذا ولكن هناك دوماً «سانت هيلير»».

رفعت حاجبها: «أين يقع هذا المكان؟ لم أسمع به قط».

فأجاب: «هذا لا يدهشني. إنه في «جزر ويندوورد». سأقصد الجزيرة لأسلم مركباً إلى صاحبه».

وسكت وهو يرمقها باتزان: «يمكنك أن تأتي معي متى شئت».

حدقت تشيلي فيه، ثم قالت مترددة وهي تهز رأسها: «أذهب... معك؟ لا... لا أظن ذلك».

فقال: «اسمعي... واسمعيني جيداً. لعلني أول رجل يدفع لصاحبتك لكنني لن أكون الأخير أبداً. والرجل الثاني قد لا يحترم إجفالك وتراجعك الرقيق، حتى أنه قد يجد في ذلك ما يزيد من إثارته، فهل أنت مستعدة لذلك؟».

احمر وجهها: «أنت لا ترقّق كلماتك».

فقال: «في الواقع أنا متساهل معك».

بعد لحظة صمت قالت: «ولماذا عليّ أن أثق بك؟».

- لأن بإمكانك هذا.

وتلاقت عيناه الزرقاوان بعينيها بغطرسة، فحوّلت تشيلي نظرها بسرعة، شاعرة بخفقان مفاجىء في قلبها. وفكرت في أنه حتى لو لم يكونا وحيدين هنا إلا أنه يبقى أكثر الرجال الذين عرفتهم تأثيراً في صفاء ذهنها.

رفعت وجهها إليه: «لقد وثقت حديثاً بأناس آخرين، وفي كل مرة

www.elromancia.com

انتهى ذلك بكارثة لي».

- على حظك أن يتغير، فلماذا لا يتغير الآن؟

ترددت مرة أخرى ثم قالت وقد ازداد احمرار وجهها: «عندما تقول... أن أذهب معك... ما الذي تعنيه بالضبط؟».

لوى شفتيه: «اسمعي. لو أردت لك الأذى، لفعلت هذا وانتهيت».

وسكت يمهلها لحظة تستوعب فيها كلامه، ثم تابع: «المركب يحوي أكثر من كابينة. يمكنك أن تنفردي بنفسك بقدر ما تشائين. إنني أقدم لك طريقاً آمناً إلى «سانت هيلير» وهذا كل ما في الأمر. ما من شيء آخر. لذا، فالقرار قرارك».

كان من المفترض أن يريحها كلامه. لكن بدلاً من ذلك، تملكها شعور غريب أشبه بجرح الكرامة. غضبت من نفسها وخاطبته بحدة مفاجئة: «حسناً أنت لا تبدو لي كرجل محسن».

فقال: «حسناً يا حبيبتي، إن مظهرك أيضاً قابل لسوء التفسير... ألا توافقيني الرأي؟».

ازداد غيظها وهي ترى أن لديه جواباً عن كل سؤال.

فقالت: «لكني لن أتمكن من أن أدفع لك أجراً... كما لا بد أنك تعلم».

- لا تقلقي، فأنا واثق من أن بإمكاننا أن نصل إلى اتفاق من نوع ما.

وعندما انفرجت شفتاها بسخط، سألها: «هل تحسنين الطهي؟».

فسارعت تجيب: «نعم».

وكانت تكذب في جوابها هذا.

- لقد حُلّت المشكلة إذن. عليك أن تعدي ثلاث وجبات يومياً لي وللورنت، وبهذا تدفعين كلفة رحلتك مضاعفة.

- من هو لورنت؟

- البحار الآخر. إنه شخص عظيم، لكنه غير موهوب في الطبخ.

وسكت لحظة، ثم عاد يسألها: «ما رأيك؟».

وخطرت كلمة (خطر) في ذهنها إنما رافقتها أيضاً كلمة (مغرٍ).

وقالت ببطء: «لا... لا أفهم. لماذا عليك أن تساعدني؟ نحن غريبان تماماً عن بعضنا البعض».

- إننا من الجنسية نفسها، ونحن بعيدان عن الوطن. نظرة واحدة إليك الليلة أنبأتني أنك في مأزق كبير. لذا، خطر لي أنك قد تحتاجين إلى عون.

فحدقت إليه: «هل اسمك «غالاهاد»؟».

- بقدر ما اسمك «ميكيلا».

عضت تشيلي شفتها وقد عاد إليها الشعور بالضياع وشرعت تقول: «ما زلت غير واثقة من...».

تأوه وقد فرغ صبره: «افهمي ما سأقوله يا عزيزتي. لن أرغمك على الصعود إلى ظهر المركب «لابيل ريف»، كما أنني لن أتوسل إليك راكعاً على ركبتي. الأمر يعتمد على مقدار لهفتك للخروج من وضعك الراهن. لكنني سأبحر هذه الليلة، سواء أكنت معي أم لا».

وسكت لحظة ثم عاد يقول: «اسمعي، نحن نضيع وقتاً ثميناً. وعليك أن تتخذي قرارك الآن».

- وماذا بعد أن نصل إلى «سانت هيلير»؟

- سيكون لدينا خيارات أخرى نفكر فيها.

- لكنك نسيت أنني ما زلت بدون جواز سفر، ما يقلل خياراتي. إلا إذا كانت جزيرة «سانت هيلير» تفتح أبوابها للمغنين.

قالت هذا ساخرة بينما بقي هو لحظة صامتاً ليقول بعد ذلك: «تقولين إن ماماريتا أخذته منك. أتعرفين أين تحتفظ به؟».

- في الدرج العلوي من مكتبها. لقد أرتني إياه مرة لكي تقنعني بأنه ما زال في حوزتها، وبالتالي أنا أيضاً. إنها لعبة الهر والفأر.

www.elromancia.com

وسكت لحظة، ثم عاد يسألها: «ما رأيك؟».

وخطرت كلمة (خطر) في ذهنها إنما رافقتها أيضاً كلمة (مغرٍ).

وقالت ببطء: «لا... لا أفهم. لماذا عليك أن تساعدني؟ نحن غريبان تماماً عن بعضنا البعض».

- إننا من الجنسية نفسها، ونحن بعيدان عن الوطن. نظرة واحدة إليك الليلة أنبأتني أنك في مأزق كبير. لذا، خطر لي أنك قد تحتاجين إلى عون.

فحدقت إليه: «هل اسمك «غالاهاد»؟».

- بقدر ما اسمك «ميكيلا».

عضت تشيلي شفتها وقد عاد إليها الشعور بالضياع وشرعت تقول: «ما زلت غير واثقة من...».

تأوه وقد فرغ صبره: «افهمي ما سأقوله يا عزيزتي. لن أرغمك على الصعود إلى ظهر المركب «لابيل ريف»، كما أنني لن أتوسل إليك راكعاً على ركبتي. الأمر يعتمد على مقدار لهفتك للخروج من وضعك الراهن. لكنني سأبحر هذه الليلة، سواء أكنت معي أم لا».

وسكت لحظة ثم عاد يقول: «اسمعي، نحن نضيع وقتاً ثميناً. وعليك أن تتخذي قرارك الآن».

- وماذا بعد أن نصل إلى «سانت هيلير»؟

- سيكون لدينا خيارات أخرى نفكر فيها.

- لكنك نسيت أنني ما زلت بدون جواز سفر، ما يقلل خياراتي. إلا إذا كانت جزيرة «سانت هيلير» تفتح أبوابها للمغنين.

قالت هذا ساخرة بينما بقي هو لحظة صامتاً ليقول بعد ذلك: «تقولين إن ماماريتا أخذته منك. أتعرفين أين تحتفظ به؟».

- في الدرج العلوي من مكتبها. لقد أرتني إياه مرة لكي تقنعني بأنه ما زال في حوزتها، وبالتالي أنا أيضاً. إنها لعبة الهر والفأر.

- ومفتاح مكتبها؟ أين هو؟

فعبست تشيلي: «في سلسلة طويلة، حول رقبتها».

وارتجفت: «حيث يبقى على الدوام».

وفكر لحظة عابساً ثم عاد يقول: «وأين تكون ماماريتا الآن؟».

- في النادي. وستصعد في آخر الليل لكي تعد ما جمعته من مال. لكنها المرة الوحيدة التي تترك فيها مكانها لأنها تعتبر نفسها أحد معالم المكان، وأن الناس يأتون ليرونها.

فقال بلطف: «لعلها على صواب. ثمة شيء ما أحضرني إلى هنا الليلة. لذا، دعينا نأمل في أن يبقيها كبرياؤها هناك أمام المعجبين بها».

فسألته: «لماذا؟ ما الذي ستفعله؟».

- أقتحم ذلك المكتب طبعاً.

ففتحت فمها ذاهلة: «هل أنت مجنون؟».

- حسناً، لا يمكننا أن نأخذ ذلك المفتاح اللعين منها فقد يلاحظ الناس.

وألقى عليها نظرة فاترة: «يدهشني أنك لم تحاولي الدخول إليه بنفسك».

أزعجها انتقاده لها، فقالت: «لأنني لا أعرف كيف أدخل، على عكسك أنت كما يبدو».

- تلك مجرد واحدة من المهارات التي اكتسبتها مع مرور الزمن.

ونظر إليها متسائلاً: «أرجو أن يكون هناك مخرج من الجهة الخلفية».

- نعم، لكنه مقفل هو أيضاً والمفتاح مع مانويل.

- حسناً، ينبغي ألاّ تكون هذه مشكلة خطيرة.

ووقف، فوقفت هي أيضاً، وقالت محبوسة الأنفاس: «أنت لا تعرفه. فهو موجود دوماً في أنحاء المكان. كما أنه يحمل سكيناً».

فرد عليها بعدم اكتراث: «أنا واثق من ذلك. أدركت، عندما رأيته،

www.elromancia.com

الجلبة الكبيرة كانت مسموعة من الطابق السفلي...

قال برقة: «أرجو أن تستمر هذه الأوقات الطيبة حتى نخرج من هنا على الأقل».

كان باب غرفة مكتب ماماريتا مواربا قليلاً، ومصباح المكتب مضاءً رغم خلوّ الغرفة. لم يكن المكتب يحوي سوى القليل من الأثاث، ومعظمه عديم القيمة. وكان الجوّ عابقاً برائحة بخور رخيص جعله يعبس. قال: «يبدو أنها غير قلقة من احتمال أن تسلب».

- تظن أن أحداً لن يجرؤ على ذلك. هوذا الدرج.

وأشارت إلى المكتب، فقال: «من الأفضل إذن أن تتركيني لعملي بينما تذهبين أنت لتغيير ملابسك. نلتقي هنا بعد دقيقتين. أحضري معك الملابس التي ترتدينها، فإذا ظنوا أنك ما زلت في مكان ما في الأنحاء، فهذا سيمنحنا مزيداً من الوقت».

- هذا صحيح...

وترددت ثم قالت بلهجة متكلفة رسمية: «انتبه لنفسك».

- لماذا؟ لم أكن أعلم أنك تهتمين بي.

فقالت بحدة: «أنا لا أهتم بك لكنك طريقي الوحيد للنجاة. ولهذا لا أريد أن يعطلنا شيء».

علّق ضاحكاً: «قلبك كبير للغاية».

فقالت ببرودة: «قلت لي بنفسك إنك الخيار الوحيد، ولكن ليس عليّ أن أحبه».

فهز كتفيه: «وأنا أيضاً. لكن لا وقت لدينا لمناقشة هذا الأمر الآن. ستتحدث عندما يبحر بنا المركب».

فتركته تشيلي وهي تعض شفتها. عندما أصبح آش وحده، سار إلى الباب وأصغى لحظة قبل أن يغلقه ويعود إلى المكتب حيث فتح قميصه بسرعة وأخرج المحفظة التي يلصقها بخصره ليختار منها أحد المفاتيح فتح

به الدرج.

في الداخل، عثر على كومة غير منظمة من الأوراق، وسكين عريضة ذات مظهر رهيب.

زمّ شفتيه ثم همس برقة: «يا مغنيتي، أظنك تخمّنت من شأن ماماريتا».

كان في الدرج جوازات سفر عدة، لكن واحداً منها فقط مجلد بجلد قرمزي داكن مميز. فتحه وقرأ التفاصيل بسرعة وهو يومىء راضياً... محدثاً نفسه بأن الأمور تسير على ما يرام حتى الساعة.

ألقى نظرة فضولية على الصورة، ثم توقف وتفحصها بإمعان. بادلته الصورة النظر، وقد بدت ابتسامة خفيفة، متمردة بعض الشيء، على زاويتي فمها. كانت العينان الخضراوان باردتين صريحتين، ولا أثر للخوف فيهما. التوى فمه ساخراً وقال مخاطباً الصورة: «يا حبيبتي، كيف يمكن للظروف أن تتغير».

بعدئذ، أغلق الجواز ودسه في جيبه الخلفي وأعاد المفتاح إلى المحفظة.

تناول السكين واستعملها في فتح بقية الأدراج مبعثراً محتوياتها على الأرض لكي يوحي بأن المكتب تعرض للسلب، ثم أغلق الدرج العلوي ولوى قفله بالسكين بقوة.

شعر ببعض العطف على الفتيات الباقيات اللاتي أخذت منهن جوازاتهن فبقين أسيرات. لكن لا يمكنه أن يفعل شيئاً من أجلهن، فأيّ منهن ليست ابنة رجل غني. أنت وحدك يا مغنيتي، وستأتين معي، سواء شئت أم أبيت.

كان قلب تشيلي يخفق بعنف وهي تصعد إلى غرفتها لكنها حاولت أن تتنفس بعمق واتزان، محاولة تهدئة نفسها. وعندما دخلت، اقشعر جلدها. على المركب، لن تعاني من ذلك الكابوس الليلي رغم أنها عاجزة عن تخيل ما سيحل مكانه.

إنها لا تعرف شيئاً عن منقذها... ولا حتى اسمه. وليس لديها ما يضمن أنه سيحترم جانبه من الاتفاقية. في الواقع، قد تجد نفسها في مأزق أسوأ بكثير. بدا لها خشناً بما فيه الكفاية، كما أن جسمه قوي وكتفيه عريضتان. والحياة التي اختارها، وهي تسليم مركب لأناس آخرين، فضلاً عن بعض السرقات الجانبية التافهة، حياة محفوفة بالمخاطر.

إنه آخر رجل في العالم قد تسأله العون في ظروف طبيعية، لكنها لا تستطيع أن تشغل بالها بهذه الناحية الآن، فالوضع الخطير يتطلب قراراً خطيراً. وعليها أن تبتعد عن هذا المكان مهما كانت الوسيلة.

وحدّثت نفسها عابسة، بأنها عندما تخرج من هذا المكان وتستعيد جواز سفرها، فستعود إلى التفكير في أمرها. كان تأثير خيط من الأمل في نفسها، محيراً حقاً بعد هذه الأسابيع من الخوف. شعرت بعودة الحيوية والنشاط إليها، وبدأت تقتنع بأنها ستستعيد السيطرة على حياتها. وبسرعة، خلعت ثيابها القليلة، وارتدت ملابس داخلية قطنية بيضاء وقميصها المقفل الوحيد وتنورتها القصيرة من الكتان، ثم دست ثوبها الأسود وأدوات التجميل وبقية النقود التي لديها، في حقيبة كتفها. بعدئذ، انتعلت حذاءها الخفيف، ثم حدّثت نفسها بصوت خافت بأنها جاهزة للرحيل.

في طريقها إلى الباب، ألقت نظرة على صورتها في المرآة المكسورة المعلقة على الجدار، ثم رفعت يدها إلى شعرها المقصوص شاعرة بألم الخسارة. عندما جاءت إلى هذا المكان، كان شعرها يصل إلى كتفيها، لكن ماماريتا أمرت بقصه لتتمكن من وضع الشعر المستعار. واستلمت لينا المهمة وأخذت تقصه كما يحلو لها بين ضحكات الفتيات الأخريات وتشجيعهن.

فكرت في أن أحداً لن يعرفها، وقد يكون هذا في مصلحتها عندما يحين الوقت لإكمال رحلتها... وحدها.

ونهرت نفسها تأمرها بأن تكون إيجابية في تفكيرها، فلديها هدف عليها أن تركز عليه وحده.

إنها تريد أن تتسلم زمام الأمور في حياتها مرة أخرى وأن تستعيد قدرتها على اتخاذ قراراتها بنفسها.

أما ما كان بينها وبين رامون فهو مجرد عقبة تجاوزتها. وستحترس جيداً لئلا تتعرض للخداع من قبل رجل آخر، بما في ذلك السيد غالاهاد في الطابق السفلي. وربما هو أكثر من سواه.

بعدئذ، أطفأت النور، وخرجت إلى الممشى المؤدي إلى الطابق السفلي حيث مكتب ماماريتا. وعندما ظهر مانويل أمامها فجأة وقفت تشيلي فوراً، كما وقف هو أيضاً وقد ضاقت عيناه مشككاً.

قال: «مرحباً، ما الذي تفعلينه هنا؟».

وجدت تشيلي من القوة ما جعلها تبتسم له: «فكرت في النزول إلى الطابق السفلي لأشرب شيئاً».

سألها: «أين ذلك الرجل الذي طلبك؟».

ألقت عليه نظرة طويلة ذات معنى وردّت: «لم يعد ثمة مزيد من المتعة».

ألقى عليها نظرة شاملة: «لماذا أنت في هذه الملابس؟ وأين الشعر المستعار؟ يفترض بك أن تكوني شقراء».

هزت كتفيها: «ثوبي تمزق، والجو حار للغاية مما يجعل الشعر المستعار لا يحتمل. كما أنني لست بحاجة إليه لأشتري ما أشربه».

ارتسمت على فمه ابتسامة بطيئة غير سارة: «لدي شراب في غرفتي. أتريدين مزيداً من المتعة؟ ستحصلين عليها معي».

تراجعت خطوة وقد انقبضت يدها على حمالة حقيبتها بحركة دفاعية لاحظها هو على الفور، فسألها وهو ينظر إليها متفحصاً: «ماذا في حقيبتك هذه؟».

فرفعت رأسها: «لا شيء، وأنا أريد أن أشرب ما يروي ظمأي... وحدي».

حدّق إليها لحظة، ثم تملكها الذهول وهي تراه يومىء موافقاً. لكن عندما وقع على ركبتيه وقد جمدت عيناه ليتمدد على الأرض، رأت من يقف خلفه ممسكاً بشمعدان ماماريتا الخشبي. سألته بصوت أبح: «يا إلهي... هل مات؟».

فقال وهو يحركه بقدمه بازدراء: «لا. أعرف ما كنت أفعله. سيستيقظ مع صداع شديد، وهذا كل ما في الأمر».

- هذا كل ما في الأمر؟ الاقتحام وفعلتك هذه؟ ما هو التالي؟ عجباً.

- حسناً، لا يمكنني أن أجيبك الآن.

وركع على ركبتيه وأخذ يبحث في جيوب الجسد الغائب عن الوعي حتى أخرج سلسلة المفاتيح وهو يقول مسروراً: «لكنني أريد أن نخرج من هنا قبل أن يفتقدوه».

ووقف وقال متحدياً: «لدي جواز سفرك، فهل ستأتين معي؟ أم تفضلين البقاء هنا وقبول دعوته التالية التي قد لا تكون ودّية كدعوته الأخيرة؟».

رأت أمامها الشيطان بعينه والبحر الأزرق، وهي العالقة بينهما كحالها دوماً. يبدو أن عليها أن تختار الشيطان... حالياً فقط وليس إلى الأبد، وهذه هي الفكرة التي عليها أن تتشبث بها. شعرت برعشة خوف خفيفة امتزجت بحماسة غريبة وهي تنظر إليه فتقابل الثلج الأزرق في نظراته، وقالت بمرح: «ماذا تنتظر، يا غالاهاد؟ دعنا نذهب».

٣ - رحلة إلى المجهول

كان الجوّ حاراً ورطباً ولكن تشيلي أخذت تتنشقه وكأنه أوكسيجين نقي. أنا حرة وسأبقى هكذا دوماً... ودمعت عيناها لشعورها بالخلاص، لكنها غالبت دموعها فلا وقت لديها. عليها أولاً أن تتأكد من نجاتها. كان الخروج من النادي مجهداً للأعصاب ككل ما سبقه. فقد سحبا مانويل، الذي أخذ يتحرك ويهذي بكلمات غير مفهومة إلى المكتب وأقفلا عليه الباب بمفتاحه. وكان الطريق إلى الباب الخلفي يمرّ بغرفة ملابس الفتيات، فاضطرا لإضاعة ثوانٍ ثمينة بانتظار خلو الممر. بعدئذ، فتح الباب المقفل ثم تسلل قبلها من دون أن يراه أحد.

وعندما جاء دور تشيلي إذا بها تفاجأ بجماسينتا التي نظرت إليها بذهول. تكلفت تشيلي الابتسام حتى أنها لوحت لها بيدها وكأن ما من شيء يدعو إلى القلق. لكنها لم تكن واثقة من أن زميلتها لن تذكر ما رأت عندما يكتشفون غياب تشيلي.

وخطر لها وهي تبدأ بالركض أنّ عليها ألاّ تضيع وقتها.

- على مهل.

وامتدت يد مرافقها لتمسك بمعصمها بقوة توقفها، فقالت لاهثة: «ماذا تفعل؟ علينا أن نسرع بالهرب قبل أن يدركونا».

- لهذا، آخر ما علينا أن نفعله هو أن نلفت الأنظار إلينا. إذا ركضنا في هذا الجوّ الحار فسيتذكروننا بعكس مما لو سرنا مختلطين بمئات المشاة. لذا تمهّلي في سيرك وأظهري رغبتك في السير معي، وبحق الله كفّي عن

النظر خلفك.

أجابته بحدة متهكمة: «أرجو أن تعذرني، لكن دور الهاربة ما زال جديداً عليّ».

- نرجو ألاّ تضطري للعب هذا الدور مدة طويلة.

ترك معصمها ليمسك بأصابعها، وقرّبها منه جاعلاً الأمر يبدو وكأنهما عاشقان يريدان أن ينهيا سهرتهما معاً. لكنها تفضل معصماً متورماً على أن يمسك بأصابعها بهذا الشكل الحميم فلمسة يده، واحتكاك ذراعه العارية بذراعها أرسلا رعشة في جسمها. وهذه أحاسيس لا تحتاجها ولا تفهمها. وقد علمتها الحياة أن تحاذر من الغرباء، وأن تحافظ على هدوء مشاعرها في الأوضاع غير المألوفة.

في الواقع، أمضى رامون وقتاً طويلاً لكي يجعلها تتخلى عن حذرها وتظن أنّ إلحاحه إخلاصاً وليس طمعاً. وها هي الظروف تضع في طريقها هذا الغريب. يبدو أنه حُكم عليها أن تحتمل رفقة رجل لا يمنعه ضميره من أن يسرق أو يضرب أي شخص يعترض طريقه. ومعرفتها بأن ما حصل كان لمصلحتها لم يشكل عذراً كافياً بالنسبة لها. لم تستطع أن تفهم كيف يأتي رجل من الشارع فيشعر بالعطف عليها بحيث يعمل لإنقاذها. إذا كانت صادقة، فعليها أن تعترف أنه لفت انتباهها منذ اللحظة الأولى التي تقابلت فيها نظراتهما في النادي، ووجدت نفسها عاجزة عن تحويل نظراتها عنه. عندما كانت صغيرة حذّرتها مربيتها من أن تتمنى شيئاً ما، كيلا تتحقق أمنيتها بشكل لا تتوقعه. وكانت مربيتها على حق، فمنذ ساعتين غنت تلك الأغنية التي تقول: «أريد رجلاً يحميني»، وهذا ما حصلت عليه بالضبط. وأنذرتها غريزتها بأن هذا الرجل يمكن أن يكون أسوأ غلطة في حياتها. وكلما أسرعت في الابتعاد عنه، كلما كان هذا أفضل. لكن الأمر لن يكون سهلاً، فقد بدا لها وكأنها خرجت من قبضة ماماريتا لتقع في قبضته. لماذا كانت حمقاء إلى هذا الحد؟ وهل فات الأوان

على تصحيح الوضع بأي شكل؟

- ماذا فعلت بمفاتيح مانويل؟

- ألقيتها في قناة لتصريف المياه المبتذلة.

بللت شفتيها بلسانها: «آه... هذا... جيد».

فرد عليها بشيء من السخرية: «هذا ما ظننته».

- هذا المركب الذي سيرحل بنا... أين هو الآن؟

- يرسو في حوض السفن.

- أليس هذا هو أول مكان يبحثون فيه عنا؟

- لا أظن.

- لماذا؟

- لأن ليس لديهم سبب يجعلهم يقرنونني بالمراكب.

- لا يبدو عليك الاكتراث.

فردّ عليها بحدة: «إنك تقيدين نفسك بالمخاوف والاحتمالات».

عضت شفتها، ثم قالت: «جواز سفري، هل وجدته؟».

فتنهد: «لقد قلت لك هذا».

- هل لك أن تعطيني إياه، من فضلك؟

ألقى عليها نظرة جانبية سريعة: «أتحاولين الحصول على حريتك؟ لن تتمكني من الابتعاد نصف ميل».

معرفتها بأنه على حق لم تخفف من حدتها أو شعورها بالحرج. وتابع يقول: «كما أنني مثل ماماريتا بحاجة إلى ما يضمن حسن سلوكك».

فشهقت: «أتعني أنك لا تثق بي؟».

- ليس أكثر مما تثقين أنت بي. اصرفي بأسنانك إذا شئت لكني ما زلت أحسن خيار لك للخروج من هنا سالمة، وأنت تعلمين هذا. يا له من شك متبادل بين الأصدقاء.

فقالت ببرودة: «أنا لست صديقتك».

هز كتفيه: «حسناً، قائمة أصدقائي مليئة على أيّ حال».

فتابعت وكأنه لم يقل شيئاً: «ما زلت أريد استعادة جواز سفري... رجاءً».

- يا إلهي... إنها اللهجة الدكتاتورية الأصيلة. لم تحتج وقتاً طويلاً لكي تتحوّل من ضحية مضطهدة إلى المرأة القوية صاحبة الأوامر.

وتحوّل صوته من الرقة إلى الخشونة: «وما الذي يفترض بي أن أفعله الآن يا عزيزتي؟ أن أشحب وأعفّر وجهي بالتراب؟ كان عليك أن تجربي هذه اللهجة مع مانويل، فلا بد أن تأثيرها سيكون بالغاً».

فقالت بصوت مرتجف: «كيف تجرؤ».

كان قد توقف عن السير، ووجدت تشيلي نفسها فجأة عند رصيف الميناء بين مبنيين خشبيين، حيث واجهها بعينين لامعتين، فيما أمسكت يداه بكتفيها تمنعانها من الحركة: «أنا أجرؤ بسهولة بالغة، فعلى شخص ما أن يضع حداً لمسلكك، وذلك منذ زمن طويل. عندئذ، ربما ما كنت لتحتاجي إليّ لأنقذك من مأزقك هذا».

فقالت بعنف ورعونة: «أنا لست بحاجة إليك. سأجد مراكب أخرى. يمكنني أن أخرج من هنا من دون مساعدتك».

فقال عابساً: «نعم. لكن ربما ليس الليلة، وهذه إحدى مشاكلك. إلى متى تستطيعين الانتظار قبل أن يسري في الأنحاء أن فتاة لها عينا قطة وشعر سيء القص تحاول أن تترك المرفأ؟ وثمة سؤال صغير عن التكاليف. ليس لديك نقود، فهل أنت مستعدة لدفع ثمن بديل؟ إذا رضيت، فستجدين السفر طويلاً للغاية».

- أنت سافل.

- بل أنا واقعي، فيما أنت...

وضحك قبل أن يردف: «بالرغم من كل ما حدث، ما زلت لم تتعلمي شيئاً... أليس كذلك يا حبيبتي؟».

فقالت بصوت مخنوق: «أرجوك، أرجوك، دعني».

لكنه لم يحاول أن يتركها بل أجاب: «هل أنت خائفة من أن أعطيك درساً؟ هذا غير ممكن يا حبيبتي، لأنك لست من النوع الذي أحب».

وجدت نفسها محجوزة بين جسمه الصلب الدافئ، والجدار الخشبي الخشن خلفها، وشعرت بأنها ترتجف من الداخل.

وفجأة، انحصر العالم كله في هذه الزاوية المعتمة، ووجهه البيضاوي المنحني عليها، وقرب جسده البالغ منها.

كانت واعية أيضاً وبشكل مشوش لأمور أخرى... أصوات رجال تصيح بغضب، وزعيق بوق سيارة مرتفع. لكن بدا لها وكأن هذا كله يحدث في عالم آخر لا صلة له بها أو بالمشاعر التي تنمو في داخلها.

رأت رأسه يميل بحدة وسمعته يشتم بهدوء وبصوت منخفض. وقبل حتى أن تفكر بالمقاومة، عاد ينحني عليها ويضمها بين ذراعيه.

ولم يكن هذا عناقاً بل صدمة حقيقية... مجرد احتكاك لا يحتوي على ذرة من الرغبة.

وفجأة انتهى هذا كله بالسرعة التي بدأ بها. استندت تشيلي إلى الجدار خلفها، تكاد ساقاها تعجزان عن حملها، وهي تنظر إليه محاولة عبثاً أن تقرأ أساريره، ثم قالت بصوت يكاد لا يُسمع: «لِمَ كان هذا؟».

فأجاب: «مرّ مانويل في سيارة جيب ومعه رجل آخر ضخم كالثور. هل تعرفينه؟».

- إنه «ريكو» وهو يعمل في النادي حيث يخرج الناس غير المرغوب فيهم. هل رأيانا؟

شعرت بجسمها يخدر وحاولت عبثاً أن تتمالك نفسها فيما أجاب بجفاء: «لو رأيانا لتوقفا. كما أنني حرصت على أن أخفيك».

- نعم... نعم... هذا هو إذن؛ سبب...

وارتجفت. وعاد يمسك بيدها: «تعالي».

جمدت في مكانها وهي تنظر إليه بفزع: «ماذا سنفعل الآن؟».

هز كتفيه: «ننزل إلى حوض السفن ونصعد إلى المركب حسب خطتنا. ماذا غير ذلك؟».

– ولكن... لقد تغير كل شيء. سيكونان هناك قبلنا... بانتظارنا.

وكان صوتها أشبه بالعويل، فقال بهدوء مخيف: «سنحرص إذن على ألاّ يرياننا. لكنني أراهن على أنهما لن يذهبا إلى حوض السفن. ثقي بكلامي هذا».

ووضع ذراعه حولها وعادا يسيران على رصيف الميناء بخطوات رشيقة فيما هو يضيف: «من ناحية أخرى، أفضّل ألاّ نتسكّع في الأنحاء أثناء عودتهما».

سارت معه بحركة آلية وأفكارها مضطربة. لم تكن إمكانية اكتشاف أمرهما أمراً سهلاً، لكن الغريب أنها لم تعد من أولوياتها. وبدلاً من ذلك، أخذت تستعيد ذكرى تلك اللحظة التي جمعتهما في الظلام وتحلل كل رعشة منها. وتملكها الرعب وهي تدرك أنها أرادت المزيد، وأنها أرادته أن يدرك أنها أنثى.

انقطعت أنفاسها. هذا جنون تام! وتملكتها لمسة من الهستيريا... كيف يساورها شعور كهذا؟ إنها... لا تعرف حتى اسمه.

ومع ذلك، إنها الحقيقة التي عليها أن تواجهها... وأن تتحملها. وصدر عنها صوت خفيف هو بين الضحك والتأوه فلاحظه على الفور: «ما الأمر؟».

ردّت على الفور: «لا شيء. أنا... لا أظنني أواجه هذا الوضع جيداً».

سكت لحظة، ثم قال: «أنت تتصرفين بشكل حسن».

لم يكن هذا ما تريد أن تسمعه. لم تتوقع ثناء لكنها كانت ترجو بعض الطمأنة والدفء.

أرادته أن يبتسم لها وكأنه كان يعني... ذاك العناق. لكنها نهرت نفسها بكرب مفاجىء فعليها ألاّ تفكر بهذا الشكل.

حسناً، إنها تعرف الآن سبب ذلك الأداء الخالي تماماً من العاطفة. كما أنه أخبرها أنها ليست من النوع الذي يعجبه من النساء.

شعرت بوجهها يتوهج حين تذكرت ذلك. عليها أن تكون شاكرة لأنها لم تستسلم لذلك الإغراء.

كان هذا ليحصل بسهولة مخيفة... ما يشكل كارثة. وأخذت تذكر نفسها بأنه هو أيضاً ليس من النوع الذي يعجبها. كان أكثر من مجرد رجل جذاب، ولعل صوته مهذب... لكن هذا مظهر مزيف ففي أعماقه، ثمة ظلام... وخطر. كما أنّ اسمه ليس غالاهاد، بل مجرد قرصان من أولئك القراصنة الذين كانوا يلاحقون السفن التجارية للنهب.

لو قابلته في لندن، لما رمقته بنظرة.

وردّ عليها صوت من أعماقها: إلا إذا نظر إليك أولاً... فستجدين أنك عاجزة عن الابتعاد عنه...

لطالما اعتبرت الانجذاب الجسدي الفوري شعوراً رخيصاً، شعور لن يكون له دور في حياتها، فالمودة يجب أن تأتي أولاً... ضبط الأوتار ذهنياً هو الذي يولّد الحب الحقيقي، الحب الذي لا يهتز أبداً. ولكن كيف تفسر إذن ما حصل مع رامون؟

كانت تبحث بلهفة عن طريقة تنعتق بها من نير أبيها وتتخلّص من ذلك الضجر الذي يسود حياتها.

كانت ثائرة على إلحاحه عليها بالزواج من جيفري شيلهام، وهو أرمل يكبرها بعشرين عاماً على الأقل، سيستلم إدارة مجلس المدينة حين يتقاعد السيد كليف. لهذا راحت تستعرض أمام أبيها سلسلة من الفتيان غير المناسبين الذين لم تكن تنوي الزواج من أي منهم. أرادت فقط أن تقنع

السيد كليف بأنها مستقلة وليست للبيع، وأنها قادرة على العثور على زوج بنفسها.

استمتعت أعمدة الشائعات في الصحف بأخبارها، وازدادت تعليقاتها وهي ترى علاقاتها تذوي وتموت واحدة تلو الأخرى. وتملك تشيلي الاشمئزاز وهي تراهم يصفونها بالمرأة الغنية السيئة التي تمضغ الرجال ثم تلفظهم، وتستعمل الحب والزواج كألعوبة لترضي غرورها.

لكن رامون كان مختلفاً للغاية، أو هذا ما أقنعت به نفسها. كان مختلفاً عن طالبي الزواج الآخرين الذين حاموا حولها محاولين كسب مودة أبيها ففشلوا. فقد قاوم عدم موافقة أبيها على مرافقته لها ما كلفه الكثير من وجهة نظرها، وهما لا يزالان في مرحلة مبكرة من تعارفهما. لم يخطر في بالها قط أنها كانت مجرد هدف خطط له بعناية وقسوة بالغين.

كما أنه تحدث إليها بذلك الصوت العميق الرقيق ذي اللكنة الأجنبية الذي كان يحرّك مشاعرها وأراها لأول مرة إمكانية العيش بعيداً عن رعاية أبيها.

حدثها عن غابات المطر وأنهار تماثل باتساعها البحر، وعن مراعٍ شاسعة، وعن البيت الذي ورثه عن أبيه، وعن مزارع الفاكهة والقهوة التي تحيط به. كما حدّثها عن الزوجة التي يريدها أن تعيش معه.

لقد خطب ودّها برقة بالغة، مقدّماً لها ما اعتقدت أنه اهتمام وشغف بالغان. إنها ملاكه المعبود على الدوام!

وفكرت ساخرة أنه باعها حلماً فاشترته كله. حتى أنها لم تفكر في السؤال عمن يدير المزرعة الواسعة أثناء وجوده خارج بلاده. كل ما كانت تتصوره هو نفسها على صهوة جواد بجانب رامون، يسيران في الأراضي المغمورة بأشعة الشمس.

كانت ضائعة في روعة كل ذلك.

أما مسألة المال فلم يأتيا قط على ذكرها. كان رامون أنيقاً على

الدوام، ويقيم في شقة في حي سكني جيد في المدينة، ويرتاد دوماً أحسن الأماكن ويقود سيارة سريعة. وبكل سذاجة، افترضت أن وضعها المادي غير مهم بالنسبة إليه.

رباه، أتراها تلك غلطة العمر؟ كان من الممكن لحديث قصير واضح وصادق بين الطرفين أن يوفر عليها الكثير من المشاكل. وتملكتها الكآبة وهي تفكر في ذلك. كما أن تصلب أبيها ومعارضته عززا قرارها وثقتها بأن رامون والحياة التي وصفها بكل حماسة هما كل ما تريده.

وعندما منعها أبوها في إحدى نوبات غضبه من الزواج من رامون، أو من رؤيته مرة أخرى، قررت الهرب معه.

ربما لو أن هذا الرفض غير المنطقي لأبوها لم يشمل أيّ رجل ما عدا جيفري، لتعاملت معه بشكل منطقي. ولعلها كانت لتصغي إلى ما يقوله الملف الذي جمعه أبوها عن رامون، ولتقبّلت تحذيره بشكل جدّي.

لكنّها، وبدلاً من ذلك، أغمضت عينيها وأذنيها، متجاهلة تهديده بالتبرؤ منها وتركها مفلسة إذا لم تطعه. وظنت أنه إذا رآها سعيدة في زواجها، وإذا رزقت بأطفال يرققون قلبه، فقد يلين ويعترف بخطئه.

في الواقع، تخيّلت أن طريقها سيكون مفروشاً بالورود. لكن، ما أكثر ما يمكن أن يخطىء الإنسان! وتنهدت.

- هل أنت بخير؟

جاءها صوت آش فجأة بينما اشتدت ذراعه حولها قليلاً فأجابت بابتسامة مرغمة: «بألف خير».

ذكرى خداع رامون لها آلمتها للغاية، لكنها أفادتها في الوقت عينه.

أثناء وجودها في ملهى ماماريتا وجدت صعوبة في أن تفكر في المستقبل. أما الآن، فعليها أن تضع خطة جادة لحياتها، وهذه الخطة لن تتضمن هذا الرجل الذي يسير إلى جانبها.

ستبقى دوماً شاكرة له فضله، لكن لا شيء سوى الشكر. وأخذت

تحدّث نفسها بعناد: لا أريد أن أتعرض للخداع مرة أخرى، مهما كان جذاباً. لاحظت بدهشة أنهما وصلا إلى حوض السفن ونظرت من حولها وقد تملكها التوتر.

كان رامون قد أحضرها إلى هنا فتناولا العشاء في الكازينو، ثم لعب وخسر. حينذاك، عزت سبب سوء مزاجه إلى خسارته تلك، لكنها أدركت الآن أنه كان يخطط ليهرب. كان يتدرب على التخلص منها قبل أن يتوارى عن الأنظار.

وتساءلت إن كان قد فكر فيها مرة، منذ ذلك الحين... وتساءل كيف تدبرت أمورها، وهي الوحيدة المفلسة في بيئة خطرة. لكنها شكّت في ذلك. لعله تمنى أن تختفي إلى الأبد.

ولقد أوشكت على ذلك فعلاً.

أصبح مصيرها محتوماً منذ اللحظة التي اكتشف فيها أنها إذا تزوجت ضد رغبة أبيها فلن تتمكن من استلام الوديعة الموجودة في المصرف باسمها قبل عيد ميلادها الخامس والثلاثين. لقد رأت الصدمة على وجهه عندما أخبرته بذلك فضلاً عن الغضب. كان لديه الحق في أن يغضب، كما أخذت تفكر ساخرة. فقد أمضى وقتاً طويلاً في ملاحقة فتاة غنية، لكي يكتشف، بعد أن ظفر بها، أنها لا تملك شيئاً.

استغل أبوها نقوده ونفوذه لكي يتحكم بحياتها، رافضاً أن يدعها تتعلم ما يمكّنها من العمل لتحصيل معيشتها بنفسها، محدداً لها مصروفاً شخصياً بسيطاً.

أليس معيباً أن تكون المهنة الوحيدة المعدة لها هي الزواج من رجل غني؟

كان حوض السفن يعجّ باليخوت المتألقة التي يبدو أن بعضها يقيم حفلات منذ شهرين. لو كانت في «سانتو مارتينو» لنزلت ضيفة على أحد هذه المراكب معرضة جسدها لأشعة الشمس أثناء النهار، وعارضة

ملابسها الثمينة أثناء الليل.

تساءلت فجأة عما سيحدث لو صعدت إلى أحد هذه اليخوت وعرّفت بنفسها قائلة إنها ابنة كليف غرير وإنها بحاجة إلى عون.

ورغبت في أن تنتزع نفسها من ذراع مرافقها وتتوجّه إلى أحد اليخوت. كانت الرغبة كاسحة.

وتأوهت في داخلها. إنه جواز سفرها اللعين. لن أذهب إلى أي مكان من دونه، حتى لو قبلوا أن يساعدوني. هل سيصدقني أحد وأنا أبدو بهذا المظهر؟

وكانت قد لاحظت باستياء بعض نظرات الازدراء الموجهة نحوهما.

قال وهو يستعجلها بشيء من التسلية: «هيا يا عصفوري المغرد. لا وقت للكوكتيل الليلة».

وفكرت باستياء في أنه يجيد قراءة الأفكار. وقالت: «الناس ينظرون إلينا»..

- ليس لمدة طويلة. سرعان ما نصبح خارج هذا المكان.

عضت شفتها قبل أن تسأل: «ألم تر سيارة الجيب؟».

فقال بكسل: «ارتاحي. هل يمكنك أن تتصوري مانويل وريكو بين هذه الجموع المميزة؟ سيتعرضان للضرب حتى الموت قبل أن يكملا مسيرة عشرين ياردة... أنظري... هذا هو مركب (لايل ريف)».

اتسعت عيناها غير مصدقة. فاليخت الذي رأته ضعف الحجم الذي تصورته، ويماثل بجماله المراكب الأخرى في الحوض إن لم يكن أفضلها.

- هل هذا هو المركب الذي ستأخذه إلى «سانت هيلر»؟

- أتحسبيني غير قادر على ذلك؟

منحته ابتسامة سريعة مشرقة: «ما أبعدني عن ذلك! أظن أنك قادر على أيّ شيء».

كان ثمة رجل أسمر البشرة ذو شعر أسود جعد عند قمة الجسر الخشبي

المتحرك بين اليخت والشاطىء، وعندما رآهما قادمين، نظر إلى مرافقها ثم رفع حاجبيه بابتسامة خفيفة، قائلاً بالفرنسية:

- يا صديقي. . . كنت قلقاً عليك، لكنني الآن أتفهم سبب تأخرك.

ثم تقدم منهما وأمسك بيد تشيلي يساعدها على العبور وهو يحني رأسه قليلاً: «آنستي، أنا لورنت ماسيم. هل لي أن أعرف اسمك؟».

ترددت قليلاً، ولاحظ مرافقها ذلك، فقال بشبه ابتسامة: «إنها، بحسب جواز سفرها، «ميشيل غرير». وهي الطاهية الجديدة في المركب».

عضت شفتها. إخفاء هويتها لم يكن من رأيها. من يتوقع من ابنة أحد أكبر أصحاب المصانع أن تعمل كمغنية في نادٍ مشبوه في أميركا الجنوبية؟ حسناً، من الأفضل أن يبقى جاهلاً. وواجهت آش رافعة الرأس: «وأنت؟ هل لديك اسم أم أن هذا سر عميق؟».

- أبداً. أنا آش بريتان.

ظنت للحظة أنها لاحظت نبرة غريبة في صوته أشبه بالتحدي. لكن لعلها غلطة! التفت إلى لورنت: «إذا كنا جاهزين للإبحار فأظن أنه من الأفضل أن نتحرك».

ونظر إلى تشيلي: «وربما من الأفضل أن تنزلي إلى الأسفل قبل أن يدرك أحد أننا نحمل راكباً آخر».

- شكراً.

وتراكم التوتر الذي رافقها طوال الرحلة على رصيف الميناء، تاركاً إياها منهكة متوجسة. فنزلت السلم إلى القمرات بحذر، متمسكة بالدرابزين لأن ساقيها كانتا ترتجفان.

وجدت نفسها في صالون فسيح مؤثث بمقاعد فخمة منجدة بجلد أزرق، وسجادات ثمينة على أرض خشبية.

وبينما كانت تشيلي تنظر من حولها، جاء آش وراح يتأملها بعينين ضيقتين: «قريباً سنبحر. هل أنت بخير؟ أنت لا تصابين بدوار البحر،

أليس كذلك؟».

فأجابت بابتسامة شاحبة: «ليس على حد علمي. وطبعاً ليس وأنا في الميناء».

- الأحوال الجوية جيدة. ستكون الرحلة إلى سانت هيلير سهلة.

رحلة بحرية سهلة؟ وكبحت نوبة هستيرية هددت بالظهور. كيف يمكن لرحلة بحرية كهذه أن تكون سهلة؟ هزت رأسها وقالت بصوت أجش: «لا أصدق أن هذا يحدث حقاً. في أيّ لحظة سأستيقظ لأرى نفسي في غرفتي الضيقة المليئة بالصراصير».

فقال بهدوء: «انتهى ذلك يا ميشيل. ألا تعرفين اسم هذا المركب؟ إنه (لابيل ريف) ويعني (الحلم الجميل) بالفرنسية. وهكذا، لن تشهدي المزيد من الكوابيس».

فقالت من دون أن تنظر إليه: «سأحاول. . . أن أتذكر هذا».

- سأريك أين ستنامين.

توقعت أن تجد نفسها في حجرة صغيرة أشبه بخزانة تحتوي على مقعد مستطيل، وإذا بالغرفة الفسيحة تحبس أنفاسها. السرير المزدوج الفسيح تعلوه نافذة، فيما تغطي الخزائن الجدار. وكان الحمام رائع الجمال.

قالت مترددة: «هل أنت واثق من أن صاحب اليخت لن يعترض؟».

فهز كتفيه: «ولماذا يهتم؟ ما دمت أحضر اليخت إلى سانت هيلير سالماً؟».

فتح باب إحدى الخزائن قائلاً: «ابنة صاحب المركب تستعمل هذه الغرفة الخاصة عندما تسافر، وقد تركت بعض ثيابها هنا. خذي حريتك في استعارة ما تريدينه منها».

شهقت تشيلي: «هذا غير ممكن».

- إنها فتاة رائعة وتحب مساعدة الغير، كما أنك بمقاسها، وما عليك من ملابس غير كافٍ.

www.eromancia.com

نظرت تشيلي إلى الأرض: «يبدو أنني سأكون مدينة لكثير من الناس».

فأجاب بعدم اكتراث: «يمكنك أن تقلقي لذلك في الصباح. سنحضّر قهوة وشطائر في ما بعد إذا شئت مشاركتنا».

- لا أظن أن بإمكاني أن آكل شيئاً.

- سأتركك إذن بسلام. تصبحين على خير.

ومنحها ابتسامة سريعة ثم خرج. جلست تشيلي على حافة السرير. كان قلبها يخفق بسرعة، ولم تستطع أن تستجمع أفكارها. آش برينان! رددت الاسم بصمت. لقد عرفت اسمه أخيراً، ولكن هذا كل ما تعرفه. ما زال غامضاً، وعليها ألاّ تنسى هذا.

إنها مجرد عضو في طاقم السفينة. لهذا، لعل خوفها من أن تكون تحررت من فخ لتقع في فخ آخر هو غير عادل لكنها لا تستطيع أن تنكر أنها تحت سيطرته. فكرت في ذلك وهي تضغط بأصابعها على موضع الألم في جبينها. كانت تصرفاتها في طريقهما إلى هنا مختصرة وعملية. ومع ذلك لم تستطع أن تنسى كيف نظر إليها في النادي عندما كانت تغني... فضلاً عن الرغبة غير الخجلى التي بدت في عينيه عندما رقصت له. لكن، حتى حينذاك بدا وكأنه يرغب فيها رغماً عنه. أليس هذا ما أشعر به نحوه بالضبط؟

لكنها كانت من التعب بحيث لم تستطع أن تفكر بشكل قويم. تنهدت ثم سارت إلى الخزانة تتفحص الملابس المعلقة فيها: سراويل وقمصان أنيقة من القطن وأثواب وأحذية بأربطة. أخذت تجرب الأثواب باستحسان، مدركة أن قياسها وقياس صاحبتها واحد.

في الدرج العلوي وجدت ملابس مخصصة للشاطىء مع أثواب سباحة. وفي الدرج الثاني، كانت قمصان النوم. أما الثالث فحوى الملابس الداخلية. ركعت تشيلي وتناولت أحد قمصان النوم فانزلق قماشه

الأبيض الشفاف من بين أصابعها كنسيج العنكبوت. كان جميلاً كحال الملابس الأخرى.

إذن، هذا ما كانت تلبسه ابنة صاحب اليخت في ليالي جزر الكاريبي الطويلة المقمرة. ولكن هل كانت ترتديها لنفسها فقط؟

إنها فتاة رائعة، هذا ما قاله آش برينان عنها... وكان في صوته حرارة... وربما شيء من حنان. لا بد أنه يعرفها جيداً، وربما إلى درجة حميمة تجعله واثقاً أنها لن تمانع إذا ما أعارها ثيابها.

عادت تنظر إلى السرير الفسيح، متسائلة عما إذا كان قد ناما فيه معاً. لكن، لماذا تهتم هي؟ لاسيّما وأنها ستنفصل عنه في سانت هيلير، ولن يجتمعا قط بعد ذلك. وسمعت فجأة صوتاً ناعماً من المحرك فأدركت أن المركب يتحرك.

هبّت واقفة وهي لا تزال تحمل قميص النوم وقالت بصوت مرتفع: إننا في طريقنا، وأنا ملتزمة الآن، سواء شئت ذلك أم أبيت، ولا عودة إلى الوراء.

ووجدت نفسها ترتجف بعد أن أنهت كلماتها.

٤ - سجينة أم حرّة

بعد نصف ساعة، رجع آش ووقف أمام باب غرفتها. طرقه بخفة وانتظر، لكن من دون جواب. وبعد لحظة فتح الباب ودخل.

سار مباشرة إلى السرير ووقف يتأمل من تنام فيه وقد عقد حاجبيه. كان المصباح الجانبي لا يزال مضاء ما يعني أنها استغرقت في النوم حالما لمس رأسها الوسادة.

كانت مستلقية من دون حراك، أنفاسها رقيقة منتظمة وقد وضعت خدها على يدها، فيما انزلقت حمالة قميص نوم جولي عن كتفها، ما جعلها تبدو عاجزة. لاحظ أن شيئاً ما يلمع على وجهها، وعندما انحنى لكي يطفىء المصباح أدرك أنها دمعة. رفع يده ليمسح هذه الدمعة لكنه عاد وتمالك نفسه في الوقت المناسب.

أراد أن يضمها بين ذراعيه ويرفع حمالة قميصها ويمرّ بيده على خصلات شعرها الأسود القصيرة وغير المنتظمة، وأن يغطيها جيداً: لكن لا مجال لذلك، فعلاقتهما علاقة عمل وليست شخصية.

أطفأ المصباح واستقام في وقفته. لم يبق في الغرفة سوى ضوء القمر المتدفق من النافذة.

فجأة تحركت تشيلي في نومها وهي تتمتم بشيء ما، فتراجع عن السرير بسرعة، وإذا به يتعثر بشيء ما على الأرض. وعندما نظر إلى الأسفل رأى حقيبتها مفتوحة وقد انزلق منها الثوب الأسود الذي كانت ترتديه في النادي.

توقف وهو يتذكر بياض بشرتها وهي تلبسه، وحركات جسدها الناعمة وهي ترقص. تذكر أيضاً أن لحظة مرت به نسي فيها سبب وجوده هناك، وتملكته مشاعر عنيفة نحوها جعلته يتلهف إليها فأخذت كل قطرة من دمه تغلي في عروقه بانتظار أن يأخذها بين ذراعيه.

يا إلهي... وتملكه الاشمئزاز وهو يرى نفسه أشبه بصبي مراهق.

وتذكر ما تناولته الصحف والمجلات من شائعات عنها، فوجد تصرفها لا يتماشى مع ما قرأه عنها. لماذا أظهرت خجل العذارى هذا؟ إلا إذا كان سبب خجلها هو تقاضيها أجراً.

أخذ نفساً حاداً، محدثاً نفسه بأنها لحظة ضعف لن تتكرر وأن عليه أن يتخلص من هذه الذكريات... فيدفنها إلى الأبد مع تلك اللحظة التي تظاهر فيها بأنه يعانقها ليواريها بجسده، فشعر بها ترتجف بين ذراعيه.

حدّث نفسه أنها قد تصبح لأي شخص، ولكن ليس له، وأن عليه ألاّ ينسى ذلك أبداً. بعدئذ سار إلى الباب وخرج بالخفة نفسها التي دخل بها.

* * *

كان لورنت في قمرة القيادة يدندن لحناً بهدوء عندما جاء آش حاملاً طبقاً مليئاً بشطائر الدجاج وفنجانين من القهوة يتصاعد منهما البخار.

- هل هي نائمة؟

فقال آش باختصار وهو يضع الصينية أمامه: «أظنها ترتاح».

- يا للصغيرة المسكينة! يا لها من محنة.

- لقد آذت نفسها بنفسها، لكن هذا لن يدوم طويلاً. وقد بدأت إمارات الشفاء تبدو عليها.

تناول لورنت شطيرة قضمها متلذذاً وهو يقول: «إنك تقسو عليها. هل صادفتك مشاكل كثيرة في إقناعها بالخروج معك؟».

- كانت على وشك أن تبدأ مهنة الرقص الإباحي، بل أسوأ من

www.elromancia.com

ذلك، فوجدت أن أيّ بديل هو أفضل.

- هل تركوها تذهب بسهولة؟

فأجاب بابتسامة باهتة: «ليس تماماً. واجهتنا عقبة فأزلتها».

- أتصور ذلك. وهل تعقبوكما؟

- كانوا في أثرنا، لكنهم أخطأوا التقدير. تعمدت أن أترك علبة كبريت من فندق «مرغريتا» على الطاولة لكي يعثروا عليها، فذهبوا بسرعة إلى الناحية الأخرى من المدينة ليرهبوا ويقسوا على الكاتب المسكين.

فأومأ لورنت: «كل شيء حسن إذن. سيرتاح فيكتور. إن رسائله بالفاكس تزداد انزعاجاً».

- سأخرجه من تعاسته وأخبره بأن يلزم الهدوء من الآن فصاعداً حتى نصل إلى الهدف. سنوصلها إلى سانت هيلير. ولا أريد أن يثير شكوكها.

فقال لورنت معنفاً: «هدف! يا لها من كلمة باردة تصف بها فتاة جميلة كهذه».

توتر فم آش: «أريد فقط أن أنهي هذا كله. أريد أن يسارع بابا بإرسال المال إلى ابنته الأميرة المدلّلة. إنها آخر عملية أقوم بها قبل أن أتقاعد».

- بالنسبة إلى الفتاة... أتظنها ستحدث متاعب؟

- كان الرعب يملؤها هذه الليلة بحيث أبدت استعداداً للتمسك بقشة إذا قدمتها لها. لكنها ستستيقظ صباح الغد مرتاحة غير خائفة. وما أسرع ما تبدأ بالتفكير، والتساؤل عن سبب إنقاذي لها بهذا الشكل. ستبدأ بطرح الأسئلة.

- دعنا نأمل أن نصل إلى سانت هيلير قبل أن تضطر للرد عن أي سؤال. والآن، اذهب واتصل بفيكتور، وطمئنه إلى أن الأمور سارت وفق الخطة الموضوعة، وأخبره بأن يبقى بعيداً عنك.

ونظر إلى آش بدهاء: «عليك أن تحصل على قسط من النوم أنت

أيضاً، فإذا كان كلامك صحيحاً، سيتوجب عليك أن تستعمل كل يقظتك وحضور بديهتك غداً».

- في ما بعد. أنا لم أتعب بعد.

وأخذ فنجان القهوة وجلس على مقعد ليتأمل المياه الفضية وهي تترقرق أمام مقدمة السفينة.

الآن، وبعد أن أنجز مهمته، أخذ التوتر يفارقه، ليتركه واهناً من الضجر، لكنه لن يخلد إلى النوم إذ يعلم أنه سيستلقي مستيقظاً في ضوء القمر، متخيّلاً رأس فتاة سوداء الشعر على الوسادة، وأثر دمعة على خدها. وتذكر رائحة بشرتها العطرة عندما احتضنها تلك اللحظة الخاطفة، فشتم بصوت خافت.

حدّث نفسه بأن الوقت حان ليترك هذه اللعبة، وأنه أصبح رقيق المشاعر مع التقدّم في السن. لكن هذه الأفكار لا تفيد لأن المهمة لم تنته بعد، والخطر ما زال كبيراً. وتنهد من دون صوت.

* * *

فتحت تشيلي أجفانها الثقيلة وطرفت من أشعة الشمس التي غمرت الغرفة. شعرت للحظة بالضياع، ثم عادت إلى وعيها ببطء، فجلست منتصبة، وتمطّت، ثم تخلّلت شعرها بأصابعها.

كانت على السفينة «لابيل ريف» بعد أن تركت «سانتو مارتينو» بكل ما تحتويه من رعب، خلفها.

لكن المستقبل القريب هو ما يهمها الآن. ماذا سيحدث عندما يصلون إلى سانت هيلير؟ كانت خياراتها قليلة، وآخر ما تريده هو أن تجد نفسها مفلسة وغريبة من دون أهل أو أصدقاء في بلد بعيد.

ركعت على السرير ونظرت من النافذة فلم ترَ سوى البحر الكاريبي الممتد إلى ما لا نهاية. لم تكن تعرف الوقت فقد أخذ رامون ساعتها مع ما أخذه، لكن موقع الشمس أنبأها بأنها تأخرت في النوم.

www.elromancia.com

ربما حان الوقت لتصعد إلى سطح المركب. كان رائعاً أن تحصل على حمام حقيقي مرة أخرى، وأن تشعر بالماء الساخن على شعرها وجسمها، وأن تتمتع بالصابون المعطر. ولو أن لديها ملابسها الخاصة لترتديها لاكتملت سعادتها، لكن لم يكن لديها من خيار سوى أن تستعير ملابس ابنة صاحب المركب.

ستستعير أقل ما يمكن من الملابس ثم تعيدها إلى مكانها في أول فرصة.

ارتدت سروالاً أبيض وقميصاً أخضر من دون كمين وانتعلت حذاءً خفيفاً ثم تركت الغرفة وصعدت إلى السطح. تملكها شعور غريب وهي تقابل مخلّصها في ضوء النهار القوي. ومهما بلغ عرفان الجميل الذي تشعر به فقد وجدت صعوبة في الشعور بالامتنان نحو رجل لا تعرف إلا القليل عنه. رجل وجدت نفسها منجذبة إليه على الفور ومن دون رغبة منها. أما سبب هذا الانجذاب فهذا ما لم تعرفه. لعله هبّ لمساعدتها وهي في ورطة عظيمة، لكنه لم يظهر أيّ دليل عطف أو اهتمام. وفي الواقع، دفعها بخشونة في الشوارع وعلى سطح هذا المركب، وكأنه ندم على اندفاعه لنجدتها.

هذا إذا كان ما حدث اندفاعاً. ووقفت مقطّبة، شاعرة بعدم الارتياح.

قال آش وهو يظهر أمامها من مكان ما: «ها أنت أخيراً».

كان يلبس سروالاً قصيراً فيما صبغت الشمس بقية جسده.

ردت عليه ببرودة: «صباح الخير».

فبالرغم من حماستها، رأته بحاجة إلى درس في التهذيب.

قال من دون ابتسام وهو ينظر في ساعته: «لقد تأخرت على موعد الفطور».

- فقدت ساعتي، كما أنني تأخرت في النوم.

- سأعطيك منبهاً... ستجدين لحماً في الثلاجة ستتناوله مع البيض

المخفوق والمقلي والخبز المحمص والقهوة الثقيلة ومن دون تأخير.

غاص قلب تشيلي. لقد نسيت هذا. وقالت «بيض مخفوق ومقلي؟».

- نعم. هل من مشكلة؟

فقالت كاذبة، بابتسامة مشرقة: «أبداً. أنا أسأل فقط».

- ثمة جرس في المطبخ، إقرعيه عند جهوز الفطور.

سارت تشيلي إلى المطبخ ونظرت من حولها. وجدت فرناً كهربائياً ومحمصة للخبز وجهازاً لتحضير القهوة. فكرت في أن الأمور تسير على ما يرام حتى الساعة.

فتحت الأدراج والخزائن فوجدت أدوات المائدة بسهولة.

إنها تعرف كيف تقلي البيض المخفوق، نظرياً فقط. وبحسب خبرتها، ثمة شخص آخر عليه أن يحضره. جهزت إحدى الطاولات للطعام، ثم وضعت البن في إناء القهوة وأضافت ماءً مغلياً، وقطعت شرائح غير سوية من رغيف، ثم وضعتها في محمصة الخبز بصعوبة.

وضعت اللحم في الصحون، ثم أخذت تخفق البيض. كانت الزبدة تميل إلى اللون البني عندما أضافت المزيج بسرعة وأخذت تحركه بشوكة، وما لبث الذعر أن دبّ فيها وهي ترى البيض يستحيل إلى ما يشبه الجدائل الجلدية الطويلة.

وفي الوقت نفسه، تصاعدت رائحة الخبز من المحمصة ما يعني أن الوقت حان لإخراجه بالسكين. وعندما قرعت الجرس أخيراً كانت تشعر وكأنها سجادة مبللة.

رأت حواجبهما ترتفع لمرأى الأطباق التي وضعتها أمامهما. وقال آش: «هذه القهوة خفيفة».

وأشار إلى البيض المقلي مضيفاً: «يمكنني أن أستعمله لترقيع عجلات السيارة. قلت إنك تحسنين الطهي».

فقالت ثائرة لحكمه هذا على جهودها: «هذا لأنك بنيت افتراضك

www.elromancia.com

على كوني أنثى».

فقال بخشونة: «لا تبدئي ذلك. تحضير الطعام هو عملك بصفتك فرداً من طاقم الملاحين، وهو المبرّر الوحيد لوجودك على هذا المركب. فاحرصي على أن يكون العشاء أفضل».

أخذت تشيلي تتساءل وهي تراه يندفع خارجاً من الصالون: يا إلهي هل وجدته ذات مرة على شيء من الجاذبية أم أن ذلك كان جنوناً مؤقتاً سببه ما مرّ بي من ظروف قاسية عصيبة؟

ابتسم لها لورنت متعاطفاً وقال: «لقد ابتعت بعض اللحم الطازج في «سانت مارتينو». أظن أن بإمكانك أن تطهيها «يخنة» على نار خفيفة أليس كذلك؟».

فأجابت بجفاء: «لا، لا أظنني أستطيع».

تنهد: «ربما عليّ أن أساعدك يا عزيزتي، قبل أن يطردك آش».

فحملقت تشيلي فيه: «لكنه قال إنك لا تجيد الطهي».

هز كتفيه: «ربما أراد بذلك أن يستثير عطفك، ويقنعك بالإبحار معنا. على أيّ حال، أنت فتاة رائعة الجمال والنظر إليك أفضل من النظر إلى الأفق طوال النهار».

عضت شفتها ورفعت يدها إلى شعرها بخجل: «لكنني مفزعة».

فربت على كتفها وقال بلطف: «إن شعرك سينمو».

وأشرف عليها أثناء تقطيعها اللحم وتقليبه على النار مع الزيت والثوم والبصل.

عندئذ، وضع الخليط مع الأعشاب العطرية والخضار في إناء واسع أوصل إليه التيار الكهربائي ثم قال باسماً: «والآن، سندعه ينضج على نار خفيفة. وهكذا تكونين قد تعلمت كيف تطعمين رجلاً جائعاً».

خطر لها أن كافة الرجال الذين تعرفهم يطعمون أنفسهم بأنفسهم، مستعملين البطاقة البلاتينية.

قالت بحلاوة زائفة: «هل هناك مزيد من الأعمال الصغيرة يريدني قائدنا الشهم أن أقوم بها مثل مسح سطح المركب بفرشاة أسناني؟».

تلاشت ابتسامة لورنت وقال بجد: «من الحكمة ألاّ تفكري بهذا الشكل، يا آنسة... هل كنت تفضلين البقاء في سانت مارتينو؟».

ساد الصمت، وابتلعت ريقها قبل أن تقول بصوت خافت: «هل أخبرك... أين وجدني... كيف؟».

- نعم. أخبرني. كان وقتاً عصيباً جداً بالنسبة إليك.

فقالت بمرارة: «كما جعلني امرأة سيئة، جاحدة».

فقال: «آش ليس قديساً، يا آنسة. ولكن من منا قديس؟».

فتنهدت: «كان عليّ أن أخبره أنني لا أحسن الطهي، لكنني لم أشأ أن يعتبرني غبية... عديمة النفع. فكرت في أن كل النساء يحسنّ الطهي، فما الصعوبة فيه؟».

أخذ يربت على كتفها مواسياً: «حسناً، لقد اكتشفت الجواب عن سؤالك، يا صغيرتي. لن تضطري لتحضير وجبات كثيرة قبل وصولنا إلى سانت هيلير. محنتك الحالية ستنتهي قريباً».

ربما، لكن هذا لا يعني أنني سأنسى بسرعة. طرد آش بريتان بعيداً عن فكري سيكون أصعب ما عانيته في حياتي. وشعرت فجأة بدموعها تتدفق ثقيلة، حارة. وتساءلت بعنف عما حدث لها، وكيف تستطيع أن تمنعه...؟ لا أريد هذا، ولا أحتاجه. والأسوأ من ذلك أنه هو أيضاً لا يريده. وعبثاً حدّثت نفسها بأنها تعيسة حمقاء لأنها، في الحقيقة، تكاد لا تعرف عنه شيئاً، ولأنها بعد أن تصل إلى سانت هيلير لن تراه مجدداً.

وفكرت بحزن في أن كل هذا صحيح. لكن لم يحدث أي فرق... لا فرق على الإطلاق. فات الأوان على ذلك. وشعرت بألم بالغ يتصلب في داخلها كالحجر.

* * *

www.elromancia.com

أخذت تعمل بثبات، فنظمت مطبخ المركب ونظّفته كيلا يجد آش ما ينتقده. لكن، عندما انتهت، وجدت نفسها أشبه بالضائعة. رأت أن وضعها في المركب غير محدد، فهو يتراوح بين مسافر من دون أجرة، وبين طاهية فاشلة، وهي غير مرغوب فيها في كلا الحالتين.

تساءلت عما إذا كان عليها أن تمضي اليوم في الغرفة، بعيدة عن الأعين، فتسلى ببعض الكتب والمجلات التي وجدتها في الصالون.

لكن هذا تصرف جبان، ولم تشأ أن يدرك آش أنها تتجنبه عمداً. عليها أن تخرج وتمضي بعض الوقت تحت أشعة الشمس. وإذا أراد أن يبقيها مسجونة، فهي تتمنى له حظاً سعيداً.

في غرفتها اختارت أكثر أثواب السباحة حشمة، وهو لباس بسيط أسود يعلوه قميص أسود وأبيض. لكنها بقيت تشعر بالخجل وهي تخرج إلى أشعة الشمس، محدثة نفسها بأنها أشبه بالحيوانات التي تخرج من البيات الشتوي، أو بالسجناء الذين يطلق سراحهم. كانت في النادي، قد تحوّلت إلى مخلوق ليلي حيث تمضي معظم النهار في محاولة لنسيان ما حولها.

لن أعتبر الهواء النقي وأشعة الشمس أمراً مسلماً به بعد اليوم.

كان آش قد سبقها إلى السطح وجلس إلى طاولة يتصفح بعض الأوراق. أومأ لها برأسه إيماءة خفيفة، لكنها لاحظت أنه مشغول أكثر منه غير مرحّب فيها. خلعت قميصها وتمددت على أريكة منجدة، وأغمضت عينيها، شاعرة بالحرارة تخترق جسدها، طاردة آخر بقايا برودة الخوف.

أدركت الآن أن الخوف أصبح جزءاً من حياتها، وأنها أخذت تنتظر المصيبة التالية لتحلّ عليها ما سحق فيها الأمل وأوهن قدرتها على المقاومة.

لو لم يأت آش، كم من الوقت كان سيمضي قبل أن تتوقف عن

الاهتمام بما يحدث لها؟ فقد اقتنعت بعدم فائدة مقاومته ما دامت تخسر على الدوام وتلين لما تعدّه ماماريتا لها؟ كان هذا يشبه من نواح كثيرة، ما حدث لها مع أبيها. لعل هذا ما جعل رامون يراها ضحية سهلة. فالثورة ضد أبيها بمثل هذه الطريقة كانت السبيل الوحيد للنصر في حربها المنهكة.

- هاك.

قاطع صوت آش أفكارها فرفعت بصرها إليه بحفلة لتراه يمدّ يده إليها بأنبوب فيه مرهم وقاية من أشعة الشمس. فقالت: «آسفة... كنت... كنت بعيدة أميالاً».

- ستكونين بعيدة أميالاً في المستشفى إذا لم تنتبهي لنفسك. هذا للوقاية من الشمس، ضعي الكثير منه.

- آه... شكراً لك.

فأجاب بأدب: «لا شكر على واجب. لا أريدك أن تصبحي كالخبز المحمص. هذا كل ما في الأمر».

وعاد إلى عمله.

يا له من حيوان! وحملقت بصمت إلى حيث كان يجلس. يُفترض أن يساعدها في وضع المرهم حيث لا تصل يدها. لكن لعل هذا أفضل فإذا أصبح لطيفاً معها، ستقع حقاً في مشكلة.

وضعت المرهم بعناية، ثم فتحت إحدى المجلات التي أحضرتها، وأخذت تتصفحها بتكاسل. لقد عادت الأمور إلى طبيعتها في الظاهر، لكنها تدرك في أعماقها أن ما من شيء سيعود كما كان.

كانت تشعر بوجوده بشكل مقلق، وهي تجلس على بعد أمتار منه. ووجدت نفسها تسجّل كل حركة منه، حتى حفيف الأوراق التي يقلبها. وفكرت بمرارة في أنها ستعود إلى عدّ الساعات مرة أخرى، وخافت من طول الرحلة إلى سانت هيلير.

جمع آش الأوراق ثم وقف وقال: «سأذهب لأحضر بعض العصير للورنت، هل تريدين أيّ شيء؟».

مدت يدها تتناول قميصها: «هل أحضره له؟».

- ارتاحي أنت.

ونظر إليها طويلاً: «تبدين متوترة. ماذا جرى؟ هل أنت خائفة من أن يلحق بك مانويل راكباً الجمجمة والعظمتين المتصالبتين؟».

وهز رأسه مضيفاً: «هذا غير محتمل».

فابتسمت: «لكنه غير مستحيل».

- نعم، لو أن مجموعة من الغرباء خطفتك. لأن الجرذان أمثال مانويل لا يبتعدون عن المجاري التي يعيشون فيها.

فقالت بصوت خافت: «منذ وقت ليس بطويل، لم أكن أصدق أن أناساً مثله ومثل ماماريتا موجودون في هذا العالم. لكنني أعرف هذا الآن. كما لم أكن أؤمن بالمعجزات، وعليّ أن أعيد التفكير في موقفي منها الآن هي أيضاً. شكراً».

وترددت ثم عادت تقول: «أنا لم أشكرك، أليس كذلك؟ ليس تماماً. ليس كما ينبغي وربما الآن هو الوقت المناسب».

- هل نمت جيداً الليلة الماضية؟

كانت لهجته ساخرة، وعندما أومأت، ابتسم لها بسحر جعل قلبها يترنح، وقال: «هذا كل الشكر الذي أريده».

وابتعد فتراجعت تشيلي باسترخاء على وسائدها. شعرت بابتسامته وكأنها تدغدغ جسدها.

يا إلهي... عليّ أن أكون حذرة... حذرة للغاية. سمعته يتحدث إلى لورنت... وسمعت صوت ضحكهما. كانا منسجمين معاً. وتمنت أن تسترخي في حضوره وتبتعد عن التوتر، فتجتمع به وتفترق عنه كصديقين. لكننا نكاد لا نعرف بعضنا بعضاً. لقد دخل حياتي وأنقذني، وقريباً

سيرحل مرة أخرى. بعد أشهر، وربما أسابيع، سأصبح ذكرى غامضة، حادث عرضي منسي.

عاد آش بعد دقائق ووضع زجاجة كوكاكولا بجانبها، ثم سار ليقف عند الحافة ينظر في أعقاب المركب، وقد بدا عليه أنه تائه مع أفكاره.

احتست من زجاجتها جرعة كالثلج برودة لكي تريح حلقها الجاف، ثم نهضت وسارت لتقف بجانبه ثم قالت بتوتر وهي تتنفس بعمق: «أنا... أنا آسفة حقاً بالنسبة للفطور. لقد كذبت عليك خوفاً من أن تتركني خلفك إذا قلت إنني لا أحسن الطهي».

فقال بعد فترة صمت: «لا. ما كنت لأفعل ذلك لكنني كنت سأطلب منك أن تظهري إحدى مواهبك الأخرى بدلاً من ذلك».

أجفلت تشيلي ورمقته بنظرة جانبية قبل أن تسأله: «ماذا تعني؟».

وتمنت ألاّ يلاحظ الرجفة في صوتها. ردّ بهدوء: «لديك أحد أجمل الأصوات الغنائية التي سمعتها. ربما كنت لأطلب أغنية بعد العشاء».

دهشت واحمر وجهها: «شكراً».

- هل تمتهنين الغناء في إنكلترا؟

كان سؤاله عفوياً، لكن الفضول بدا في عينيه الزرقاوين. فهزت رأسها: «لا. لم أستطع أن أحصل على تدريب صحيح».

- وهل هذا ما كنت تريدينه؟

- نعم. كنت أريد هذا بشدة.

وتذكرت، للحظة مؤلمة، كيف توسلت إلى والدها لتنتسب إلى جامعة هامة فرفض طلبها بخشونة. والأسوأ من ذلك أنه أعطى أوامر إلى مدرستها بأن توقف دراستها الموسيقية على الفور. أما عدد المرات التي نامت فيها باكية أثناء الأسابيع التي تلت فهذا ما لم تعد تتذكره.

وقالت بفتور: «لا يعتبر الغناء مهنة ذات مستقبل».

وأرغمت نفسها على رسم ابتسامة مصممة على وجهها: «على أيّ

www.elromancia.com

حال، لم أثر إعجاب زبائن ماماريتا».

فقال: «اختاري جمهوراً آخر. واعلمي أنّ تأثيرك عليّ كان عميقاً للغاية، أم أنك نسيت؟».

وابتسم لها، فاحمر وجهها: «لا. لكنك لست النموذج الصحيح لزبائن ماماريتا. ما الذي جعلك تذهب إلى هناك؟».

- حب الاستطلاع.

نظرت تشيلي بعيداً، وقالت بهدوء: «لا تبدو كرجل بحاجة لأن يدفع ثمن متعة رخيصة».

فقال بجفاء: «المتعة مشكوك فيها لكنها لم تكن رخيصة».

فأجفلت: «لقد نسيت هذا. سببت لك مشاكل كثيرة، ولا أودّ أن أراك تخسر من جيبك... سأعيد إليك ما خسرته... يوماً ما».

فقال بشيء من فروغ الصبر: «انسي الأمر».

أخذت تبحث عن موضوع محايد. وأخيراً قالت: «هذا مركب رائع».

- شكراً. سأخبر صاحبه أنك قلت هذا.

- هل قلت إنك أحضرته له من سانت مارتينو؟

- لا، بل من لاترتوغا. كان قد قصدها لفترة فاستُدعي فجأة إلى منطقة بعيدة من أجل الأعمال. لذا، كان بحاجة إلى من يبحر بمركبه عائداً به إلى سانت هيلير.

- وهل يعيش هنا؟

- بعض الوقت. لكن ليس حالياً.

- ما الذي كنت تفعله إذن في سانت مارتينو؟

- أتزوّد بالوقود. حوض السفن هناك جيد.

- لا بد أنك صديق حميم لذلك الرجل ما دام يأتمنك على مركبه.

فقال بمرح: «وأنا أهل للثقة تماماً».

وابتته هل يأتمنك عليها أيضاً؟ فكرت في ذلك لكنها لم تجرؤ على طرح السؤال بصوت مرتفع لأنه أمر شخصي للغاية... كما أنه ليس من شأنها. لقد قدم لها أعظم خدمة في حياتها، وهذا لا يرغمه على أن يكشف لها تفاصيل حياته الخاصة.

ثمة شيء ما يحيط بآش بريتان... شيء يفصله عن الآخرين. قد تعرفه عشر سنوات من دون أن تعلم عنه سوى الأمور السطحية.

بدا مكتفياً بذاته. لكن، إذا تعرّف إلى امرأة ورغب فيها فهل هو مستعد لأن يسمح لها بدخول قلبه وعقله؟ ولأن يلتزم بها؟ بدا لها هذا بعيد الاحتمال.

وسارعت بالكلام مرة أخرى: «هل ستبقى فترة طويلة في سانت هيلير؟».

فهز كتفيه: «ليس لديّ خطة ملزمة».

- هل هذا ما تفعله لتعيش؟ قيادة مراكب الآخرين؟

- يمكنني القيام بكافة أنواع الأعمال. كما أن أسئلتك كثيرة؟

احمر وجهها: «آسفة. أنا أحسدك فقط لما تتمتع به من حرية».

فقال: «ما من أحد حرّ تماماً. ثم ماذا عنك يا ميشيل غرير؟ ما هي خططك للسنوات الخمسين القادمة؟».

أخذت تحدق في البحر وقالت بصوت منخفض: «لم أضع أي خطة. لا أظنني قادرة على ذلك».

- أودّ كثيراً أن أطرح عليك بعض الأسئلة. فهل أنت مستعدة للإجابة؟

- لِمَ لا؟

- يمكنني أن أفكر في عدد من الأسباب التي تمنعك من ذلك. أنت على شيء من الغموض، يا ميشيل.

ومنحها ابتسامة سريعة فرفعت حاجبيها: «أحقاً؟ أما أنت فكتاب

مفتوح طبعاً».

فقال بلطف: «أرجو ألاّ أكون كذلك. سيكون الأمر مملاً إذا استطاع أيّ شخص أتعرّف إليه أن يتكهن بنهاية الأمور».

فقالت: «لا تقلق. ليس لديّ ما أخفيه».

- أحقاً؟ هذا يجعلك فريدة من نوعك. لكننا لن نتحدث في هذا الأمر حالياً. والآن... ما الذي جاء بك إلى أميركا الجنوبية؟

- جئت لأتزوج.

فأومأ مفكراً: «وما الذي حدث للعريس السعيد؟».

- إنه... لعلّه غيّر رأيه. فهو مثلك يفضل حريته.

- لماذا قطعتما هذه المسافة كلها لتتزوجا؟

- معظم الناس يحبون الزواج في أمكنة غريبة. وجزر الكاريبي شعبية كما تعلم.

- سانت مارتينو أقل شعبية، كما أظن.

- كنا سنقيم الاحتفال في ضيعة رامون في الريف. قال إن أسهل طريق إلى هناك هي النهر، فجئنا إلى هنا لنأخذ مركباً.

وحاولت أن تضحك قبل أن تردف: «وبدلاً من ذلك، أخذت عدوى».

- هذا بالنسبة إليك. وماذا عن رامون؟

- لعله أخذ المركب إلى بيته. لم ينتظرني ليخبرني.

فقال: «وطبعاً، لم يكن المركب هو الوحيد الذي أخذه».

توتر فمها: «لا. هل علينا أن نذكر كل هذا؟ فهذا ليس ما أحب أن أتذكره».

- أما زلت تحبينه؟

فحدقت إليه: «ماذا؟».

- إنه سؤال بسيط. إذا ظهر الآن على سطح المركب فهل ستصفحين

عنه؟

- بالتأكيد، شرط أن تتحوّل جهنم إلى ثلج.

- ومع ذلك، أحببته ذات يوم إلى حد أنك قطعت معه نصف الكرة الأرضية.

- كنت أعتقد ذلك. كما اعتقدت أنه هو أيضاً يحبني، فكنت مخطئة بالنسبة إلى الأمرين.

- متى أدركت أنك لا تحبينه؟

قالت تتصنع المرح: «أظنني أخبرتك بما يكفي. المعلومات الأساسية التي تحتاج إلى معرفتها».

وبسرعة تقدم منها وأحاط وجهها بيديه ونظر في أعماق عينيها المجفلتين، وقال برقة: «وكيف تعرفين ما أحتاج إليه؟».

وفجأة تركها وابتعد بينما بقيت هي مستندة إلى الحافة تنظر في أثره ويدها المرتجفة تضغط عل شفتيها المفتوحتين.

www.elromancia.com

٥ - ضاعت إلى الأبد

كادت تناديه... كادت تطلب منه الرجوع. أرادت تفسيراً لما قاله، ولنبرة الغضب المكتوم التي أحست بها وراء كلماته، لكن كبرياءها وكرامتها حملتاها على السكوت. لم تكن تريد منه مجرد كلمات، وهي تعلم هذا. ورغم خجلها من أن تعترف بذلك، كانت حاجتها مختلفة. عادت إلى الأريكة واستلقت عليها محاولة أن تستعيد رباطة جأشها، فيما وجهها لا يزال يحترق حيث لمسها بأصابعه. كانت لمسته خفيفة، لكنها شعرت أنّ بصمات أصابعه يمكن أن تبقى على بشرتها حتى الأبد.

وهمست في سرّها: «يا إلهي... لماذا فعل ذلك؟ لماذا وضع يده عليّ؟».

أخافها شعورها بالإحباط... وكاد يسحقها. لو أخذها بين ذراعيه لاستسلمت له، ولا بد أنه كان يعرف ذلك. لا يمكنه أن يكون غافلاً عن تجاوبها معه وعن انجذابها إليه.

لقد أدرك مشاعرها كما فهمت مشاعره لكنه تركها وابتعد. وفكرت بألم، في أن كلماته قد تعني ألاّ تنتظر منه أكثر مما هو مستعد لأن يعطيه. لقد أنقذها ومنحها ملاذاً مؤقتاً، ولكن هذا كل ما في الأمر.

لعله رأى أنها مزعجة، لا تستحق العناء. وهو لا يريد التورط معها أكثر، وعندما يصلان إلى سانت هيلير سينقطع كل اتصال بينهما.

افترضت أن عليها أن تكون ممتنة لعدم استغلاله لضعفها، لكنها لم تستطع أن تشعر بهذا الامتنان... أو ربما ليس الآن، على الأقل.

أغمضت عينيها لتمنع نفسها من البكاء، خجلى من شعورها هذا... ومن ضعفها.

لا بد أن تجربتها في سانت مارتينو أثرت فيها أكثر مما توقّعت، وهذا هو التفسير الوحيد.

حدثت نفسها بأنها لن تعود المرأة التي كانت عليها، فهي لم تعد تفكر أو تشعر كما كانت تفعل. لم تعد تعرف نفسها... لكنها لن تسمح لهذا بأن يستمر، وعليها أن تعيد بناء جهاز المناعة لديها، لاسيّما لمقاومة آش بريتان. إنها بحاجة إلى تمالك نفسها قبل أن تصل إلى سانت هيلير. لا يمكنها أن تبقى معتمدة على آش، وتظهر أنها ما زالت بحاجة إلى مساعدته. عليها أن تثبت للجميع أنها شفيت وأصبحت مستعدة لتحمّل مسؤولية حياتها. سترتب أمورها وحدها، وهي مضطرة إلى ذلك لأنها لا تنوي طلب مساعدة أبيها، لاسيّما بعد أن عرّضت نفسها لخطر مريع أوشكت معه على تدمير حياتها، لكي تهرب من سلطته. فهذا ما حدث، إنها ترى ذلك بوضوح الآن، ترى أن رامون قدم لها حبل خلاصها... طريقة تغيّر بها حياتها التعيسة المحبطة، طريقة عنيفة لكنها فعالة.

فكرت ساخرة في أنها تصورت أنها تحبه، إذ قدم لها طراز عيش يختلف عن كل ما عرفته.

لطالما شكّل الهرب من أبيها الرغبة الرئيسية لديها، حتى لو لم تدرك ذلك حينها. وكان عليها أن تكتشف ذلك بهذه الطريقة القاسية. لم تقم علاقتها برامون على أساس قوي، فحتى لو تبين أنه رجل مستقيم، ما كانت تلك العلاقة لتدوم.

وعندما أعادت النظر في الماضي، أدركت أن الشكوك ساورتها حتى قبل مغادرتهما إنكلترا. لاحظت تفاصيل غامضة في خلفيته، وتناقضات في قصصه، لو تكبّدت عناء التفكير فيها لما ذهبت معه حتى إلى آخر الشارع، ولوفرت على نفسها الكثير من التعاسة والرعب.

كما ما كانت لتقابل آش الذي سلبها الأمان إلى الأبد لأنه سكن في أعماقها، وراح يجري مع الدم في عروقها.

وحدثت نفسها بأن أول ما ستقوم به في سانت هيلير هو الهرب منه سريعاً لتبدأ بنسيانه أو بمحاولة ذلك. ووجدت نفسها ترتجف.

* * *

دخل آش إلى قمرة القيادة، متوتر الجسم، فنظر إليه لورنت بسخرية وسأله: «كيف حالك؟».

- لا بأس.

ثم ألقى بنفسه على مقعد، والشرود على ملامحه.

- آسف، لأن علي أن أضيف إلى متاعبك. إنه «فاكس» آخر من فيكتور. لقد حدث تغير في الخطة. يجب أخذ الفتاة إلى إنكلترا مباشرة، ليتم تسليمها هناك.

أجاب آش باختصار: «ليس بواسطتي. اتفقنا على سانت هيلير... وهذا ما سيحدث».

وهزّ رأسه ثم أردف: «يا إلهي، لم يكن عليّ أن أشارك في هذا العمل».

ابتسم لورنت بخبث: «لكنك كنت الوحيد الصالح لهذا العمل يا صديقي العجوز. سحرك الذي لا يقاوم كان ضرورياً لإغراء الصغيرة ميشيل بالابتعاد عن حبيبها. أتى لنا أن نعلم أن علاقتهما انتهت بالدموع؟».

تحركت عضلة بجانب فم آش: «أخبرها أن لديه أملاكاً في الريف».

وأطلق ضحكة قصيرة قبل أن يضيف: «كوخ في أرض بور من دون شك».

هز لورنت كتفيه بحركة فلسفية: «لعله كان من الأفضل لو انتهى هذا كله وهي لا تزال تملك بعض أوهامها».

فتنهد آش بخشونة: «لا أظن أن لديها الكثير. وستفقد ما تبقّى لها حين تدرك أنها استبدلت «قفصاً بقفص» وأنها اشتريت وبيعت».

- إنك في خطر يا صديقي، لقد اهتزت القواعد التي يقوم عليها عملك، حيث تنفذ المهمة وتستلم النقود، ولا تتورط في الأمر شخصياً. أليس هذا ما تقوله دوماً؟ وهذا ما أتراك مادياً؟».

فتنهد: «أنا لم أنس. وقواعدي ما زالت هي نفسها... من الأفضل أن أتصل بفيكتور وأخبره بأن يوصل رسالة إلى كليف غرير يعلمه فيها أنني سأحتفظ بابنته في سانت هيلير حتى يسلّم النقود ويأتي ليأخذها بنفسه، شخصياً، حسب الاتفاق».

- لن يعجبه ذلك.

فهز كتفيه: «أنا وفيكتور لم نعد نتفق على أمور كثيرة، وذلك منذ فترة. وهذا أحد الأسباب التي جعلتني أعتبر هذه المهمة آخر مهامي».

- أعلم هذا. لكن في الواقع، لم أكن أشير إلى فيكتور. كنت أعني كليف غرير... وهو خصم مختلف تماماً، كما أظن. وربما عليك أن تكون حذراً.

- أنا أنوي ذلك.

ومنحه ابتسامة سريعة مكتئبة، وهو ينحني إلى الأمام بحجة تفحص آلات القيادة، ليفكر في أن عليه أن يكون كذلك... ولأسباب مختلفة.

* * *

كانت تشيلي قد عقدت العزم على التفكير بشكل إيجابي، لكن الأمر لم يكن سهلاً حيث أصرّت الأفكار التعيسة على الدوران في رأسها كالمطحنة.

وبدلاً من أن تطرح الكثير من الأسئلة على آش، أسئلة لم يشأ أن يجيب عليها، عليها أن تعرف المزيد عن «سانت هيلير».

الخطة التي وضعتها في سانت مارتينو والتي تقضي بالعثور على

القنصلية وطلب المساعدة ما زالت تبدو صالحة. إنما عليها أن تكتم هوية والدها إذا أرادتهم أن يساعدوها، لأنهم سيرون في كليف غرير الشخص الذي عليها أن تتصل به، لا سيّما عندما تعلن عن حاجتها للمال لكي تخرج من البحر الكاريبي.

لن تطلب العون من أبيها مهما كانت الظروف فهي ستتعب إذا ما عادت إليه خاسرة، رغم أنها واثقة من أن هذا هو ما يظنه بها.

لكن، بعد أن استطاعت أن تخرج من السجن حرة قررت ألاّ تتنازل عن حريتها مهما بلغت صعوبة وضعها... فهي من دون عمل أو بيت أو أمل. إنما عندما تواجه أباها مرة أخرى عليها أن تكون ناجحة في مجال ما.

بشكل ما، عليها أن تكون في وضع يسمح لها بأن تملي شروطها. على أيّ حال ما هي بحاجة إليه حالياً هو جواز سفرها. افترضت أنها عندما تخرج سالمة من سانت مارتينو سيكون عليها أن تستلمه بكل بساطة، ومع ذلك لم يأتِ أحد على ذكره منذ جاءت إلى المرفأ، ما جعلها تشعر بالضيق.

لعل هذا غاب عن باله طبعاً، لكنها لا تظن ذلك إذ لا يبدو لها كمن يسهو عن هذه المسائل.

في الواقع، انتابها شعور غريزي بأنه يتقدمها دوماً بخطوات ولعل الوقت حان لتغيير هذه الموازين قليلاً.

على أيّ حال، جواز سفرها قطعة ثمينة من ممتلكاتها الشخصية. ولا بدّ أن القنصل سيطلب رؤيته للتثبت من هويتها ولهذا لديها الحق كله في استعادته.

ما مدى صعوبة هذا الأمر؟ «لابيل ريف» مركب كبير لكنه مجرد مركب، حدوده معروفة. يمكنها البحث في قسم المنامة.

تركت مجلتها مفتوحة بجانب أنبوب مرهم الوقاية من أشعة الشمس

لتعلم من يهمه الأمر أن غيابها مؤقت ثم ارتدت قميصها ونزلت إلى أسفل تتمشى بشكل عفوي. وعندما أصبحت بعيدة عن الأنظار، راحت تتنقل بسرعة وصمت حافية القدمين.

لم يبق أمامها سوى فتح الأبواب. جربت غرفة النوم المجاورة لغرفتها وراح نبضها يخفق بعنف حين خطر لها أن آش ينام في أحد هذين السريرين الخاليين. ولكن السريرين لم يكونا مجهّزين ما يعني أنه يستعمل الغرفة الرئيسية في هذا المركب. وفكرت متهكمة في أنه يعتبر نفسه الرجل المسؤول في أي مكان يحلّ فيه، وأنه كان عليها أن تدرك ذلك فتدخل تلك الغرفة أولاً.

فتحت الباب ونظرت إلى الداخل، كانت الغرفة مؤثثة بشكل ملفت، السرير الفسيح يحتل وسط الغرفة كجزيرة طافية والخزائن مصنوعة من خشب أبيض ثمين. غاصت قدماها في السجادة السميكة وهي تدخل. رأت السروال الكاكي الذي كان يرتديه في الأمس، لكن تفتيشاً سريعاً في جيوبه أثبت أنها خالية. شتمت بصوت خافت وحوّلت انتباهها إلى المنضدتين على جانبي السرير لكنها لم تجد فيها سوى قطع نقدية ومنديل.

شيء آخر أوقفها عن العمل وهو صورة فتاة شابة، شقراء، نحيفة، جميلة ترتدي سروالاً قصيراً وقميصاً وتبتسم للكاميرا بثقة تامة.

رفعت تشيلي الصورة وأخذت تتفحصها وقلبها يخفق بألم. أتراها ابنة صاحب المركب أم فتاة أخرى تختتم قائمة طويلة؟ الصورة موضوعة قرب السرير بحيث تكون آخر ما يراه قبل النوم وأول ما يراه في الصباح.

وضعتها مكانها شاعرة بغصة في حلقها. ما الذي توقّعته؟ إنه جذاب حرّ، وليس من النوع الذي يعيش عازباً وقد عرفت ذلك منذ البداية.

لعلها مدهوشة وحسب لاحتفاظه بهذا التذكار الشخصي. لا بد أنه يعتبر نفسه مخطوباً، ما يفسر أموراً كثيرة. وفجأة، شعرت بعدم الرغبة في متابعة البحث. تملكتها رغبة قوية في الخروج من الغرفة وإغلاق الباب

خلفها بشدة.

عليها أن تفكر ولهذا تحتاج للانفراد بنفسها. وما إن وصلت إلى غرفتها ووضعت يدها على مقبض الباب حتى سمعت صوت آش يقول: «ها أنت ذي».

استدارت بسرعة وهي تشهق، كانت من الاستغراق في التفكير بحيث لم تلحظ قدومه. وخطر لها أنه لو تقدم لحظة لقبض عليها بالجرم المشهود.

- لقد أفزعتني.

قال ساخراً وهو يتأملها عابساً قليلاً: «هذا واضح. عليّ أن أتعلم أن أسعل أولاً».

وصمت لحظة ثم أردف: «ماذا كنت تفعلين؟».

فأجابت متحدية: «أبحث عن شيء من السلام، لم أكن أعلم أنه عليّ أن أطلب منك إذناً».

فتوتر فمه: «ليس عليك ذلك. كنت قلقاً عليك من ضربة شمس، يبدو وجهك شديد الاحمرار».

فكرت في أن هذا محتمل لكن لا علاقة للأمر بحرارة النهار. وهزت كتفيها: «لم أنتبه لذلك، هل من أمر آخر؟».

- في الواقع، لا بأس بشيء من الغداء. مجرد حساء.

- حسن. سأقرع الجرس عندما يصبح الغداء جاهزاً.

ألقى عليها نظرة أخرى متفحصة: «هل أنت بخير حقاً؟».

- في أحسن حال. والآن إذا سمحت، فسأعود إلى عملي.

استند إلى الجدار ساداً عليها الطريق: «ابتدأت أفهم شعور العبيد أيام الرومان».

فقالت: «حسناً لا تقلق، أنا واثقة من أنّ هذه المشاعر ستذوي على الأقل عندما نصل إلى سانت هيلير. متى سنصل بالضبط؟».

- الدقة ليست ميزة معروفة في جزر الكاريبي لكننا نرجو أن نصل بعد

ظهر الغد.

فقالت: «الأمور تتحسن طوال الوقت».

فتأملها لحظة وقال: «أنا مسرور لتفكيرك هذا، هل أفهم من ذلك أنك لا تستمتعين بهذه الرحلة».

- هل الاستمتاع هو الهدف؟ لم أكن أعلم هذا.

وضحكت فقال: «غاب عن ذهنك على ما يبدو أنني أكافح بمشقة كيلا يزداد الوضع سوءاً».

- وكيف سيزداد سوءاً؟

فقال بهدوء: «بهذا».

وضمها بين ذراعيه يعانقها، فرفعت يديها بحركة غريزية لتبعده عنها لكن راحتيها استقرتا على صدره العاري تستمتعان بخفقات قلبه القوية.

أحنى آش رأسه ينظر إليها بعينيه الزرقاوين اللامعتين ففتحت فمها مذهولة. حاولت أن تقول شيئاً، أن تجد كلمات احتجاج أو إنكار لكنها فشلت في ذلك.

رفعت وجهها وأسبلت أهدابها مستسلمة ثم رفعت ذراعيها تحيط بهما عنقه.

راحت ساقاها ترتجفان تحتها فمالت إلى الخلف مستندة إلى باب الغرفة.

وفجأة من دون إرادة منها تذكرت رامون... الذي ألحق بها الأذى بعدم اهتمامه بها. رامون الذي خدعها واستغلها كما سيفعل آش... إذا ما سمحت له بذلك. وسمعت نفسها تتأوه ثم تدفع آش عنها بقوة، مكافحة لتحرير نفسها منه فيما تلك الصورة بجانب سريره تندفع إلى ذاكرتها لتذكرها بأنهما غريبان وأن له حياته الخاصة التي لا تعرف عنها شيئاً، وأنها ليست أكثر من جسد لفته في نادي ماماريتا ولم يستمتع به، وهو يحاول اغتنام الفرصة الآن ليحقق رغبته.

www.elromancia.com

إنها مدينة له وهي تعرف ذلك لكن لا يمكنها أن ترد دينها بهذه الطريقة... لن تسمح لنفسها بأن تعامل بهذا الشكل لكي تنبذ في ما بعد عندما يقرر الرحيل.

تركها آش في الحال ونظر إليها عابساً: «ماذا حدث؟».

- لا... لا أستطيع، فقد... تذكرت شخصاً...

كلماتها المرتجفة هذه أعقبها صمت طويل غامرت بعده بالنظر إليه لتجد على وجهه قناعاً بارداً فقالت: «آش... أنا آسفة آش».

أرادت أن تشرح له لكن الأفكار كانت تغلي في رأسها فلم تستطع أن تؤلف جملة مفهومة.

- لا تأسفي وأنا أيضاً لدي أمور أتذكرها.

وابتسم ابتسامة غير حارة فيما تابع قائلاً: «أظن أن علي أن أشكرك لتذكيري بذلك لكنني لا أشعر حالياً بعرفان الجميل. فلنتفق إذن على أننا نجونا من غلطة فظيعة وندع الأمر عند هذا الحد».

وسمعت نفسها تقول بصوت أجش: «أحقاً؟».

فقال بصوت هادىء: «إنه مجرد عناق. وقد حدث لك هذا من قبل فانسي الأمر كما سأفعل أنا».

وتنحّى جانباً دافعاً شعره المبلل بالعرق إلى الخلف قبل أن يضيف: «والآن لا تدعيني أعطلك عن عملك».

عندما ابتعدت عنه، التفتت إلى الخلف لترى إن كان لا يزال واقفاً... وإن كان ينظر إليها بشيء من الأسف. لكنها اكتشفت أنه توارى عن الأنظار. لعله لجأ إلى غرفته فأدركت أنّ بإمكانها أن تهرب بسلام.

حين وصلت إلى المطبخ وجدت أنها تلهث وكأنها شاركت في سباق. أول ما فعلته هو غسل وجهها بمياه باردة لكي تهدىء مشاعرها.

طلب منها أن تنسى ولكن كيف يمكنها هذا، لا سيّما وأنّ كل ما

تحتاجه هو أن تختبىء في زاوية مظلمة بحيث لا تقع عيناها عليه مرة أخرى.

لكن فرصة عدم رؤيته ضئيلة على متن هذا المركب كما أن عليها أن تقابله بعد قليل لتقدم له الطعام.

وتأوهت في داخلها وهي تبحث في المطبخ عن علبة حساء.

هل يمكن أن تسوء الأمور أكثر؟

ساءها أن تتذكر سهولة ارتمائها بين ذراعيه بينما كان عليها أن تقاومه. في الواقع، ما كان ينبغي لها أن تسمح بحدوث هذا منذ البداية. كان عليها أن تتذكر سبب وجودها هنا وتبقي تعاملها معه على أساس عملي بحت.

لم تسأله عن جواز سفرها حتى عندما ذكرت سانت هيلير رغم أنها كانت فرصة جيدة لذلك.

سمعت وقع أقدام في الصالون فأجفلت. هل لاحظ آش أنها كانت في غرفته؟ وتملكها الرعب. هل حركت شيئاً ما أو تركت درجاً مفتوحاً؟ وما هو العذر الذي يمكن أن تقدّمه إذا ما اتهمها بالتجسس؟ لكنها لا تحتاج إلى عذر، فهو يحتفظ بشيء يعود لها، وهي تريد استعادته ولها الحق في ذلك.

لكن عندما استدارت مستعدة للقتال رأت، وقد تملكها الارتياح، أن القادم هو لورنت.

- هل تحتاجين إلى مساعدة؟

- أظن أن بإمكاني تدبر أموري لو اضطررت لفتح علبة حساء.

- هل أنت واثقة؟ يبدو وجهك أحمر بشكل غير عادي.

هزت كتفيها: «الشمس قوية. أنا لم أتعود عليها بعد».

نظر إليها بدهاء معلقاً: «هذا هو السبب».

- أخرجت من الثلاجة بعض المعجنات، أتريد مني أن أسخنها؟

www.elromancia.com

- نعم، من فضلك.

وضعت بعض الخضار مع الكريما في مقلاة وأخذت تسخنها على نار هادئة بينما انشغل لورنت بالفرن. قالت: «أرجو أن نصل إلى سانت هيلير قبل أن أسمم الكل».

- هذا ليس عدلاً! لا تبخّسي من شأن نفسك بهذا الشكل يا آنسة.

- أرجوك! أصدقائي ينادونني تشيلي.

فرفع حاجبيه: «أنت تبعثين الغرور في نفسي يا تشيلي. شكراً».

- أخبرني الآن عن سانت هيلير. لا أظنها كبيرة جداً.

- لا، لكنني أعيش فيها. لذا، أجدها جميلة جداً.

- هل أنت متزوج؟

- نعم، ولديّ ولدان، بنت وصبي.

تذكرت تشيلي أنها رأت صوراً لأسرة في غرفته، لكنها لا تستطيع أن تقول له ذلك طبعاً. فقالت: «لا بد أنهم يفتقدونك عندما تبتعد عنهم بهذا الشكل».

هز كتفيه عجياً: «هذا لا يحدث كثيراً».

- إذاً، هذا ليس عملك المنتظم، أعني الإبحار على مراكب الآخرين؟

- كلا، لدي في سانت هيلير مزرعة موز ومركب خاص بي. فأنا أحب صيد السمك.

ترددت تشيلي ثم قالت محاولة أن تبدو عفوية: «وآش؟ هل يعيش على الجزيرة هو أيضاً؟».

- يعيش عليها، وفي أماكن أخرى. إنه عازب يستمتع بحريته على عكسي أنا.

فقالت: «نعم أنا واثقة من ذلك».

ولكن إلى متى ؟ وتذكرت الصورة التي رأتها بجانب سريره لكنها عادت تركز بعنف على الحساء. وبعد لحظة قالت: «لورنت... هل لك

أن تخبرني شيئاً؟».

- إذا استطعت.

- هل آش آسف لأنه أنقذني وأخرجني من ذلك المكان البغيض؟

- أظن يا عزيزتي أنه يأسف لاضطراره إلى ذلك.

فقالت بابتسامة جافة: «وأنا أيضاً آسفة. لكن بالنسبة إلى آش ثمة ما هو أكثر من ذلك بكثير، أليس هذا صحيحاً؟».

فبسط يديه قائلاً: «في الحياة... تصادفنا دائماً التعقيدات».

- وهل أنا إحدى تلك التعقيدات؟

هز رأسه وقال: «أظن أنني تكلمت أكثر مما يجب. المعجنات يلزمها خمس دقائق. تجدين السلطة في الثلاجة والخل في وعاء صغير. اقترح آش أن نأكل على سطح المركب».

فقالت بوجه مشرق: «هذا حسن. لكنني سآكل هنا فهذا أقل... تعقيداً، كما ترى».

ألقى عليها نظرة جانبية وهو يهم بالخروج ثم قال: «هذا ما بدأت أراه، ربما من الأفضل لك أن تبقي... بعيدة عن الشمس».

ثم خرج وهو يصفر.

لم يمر الغداء بالصعوبة التي تصورتها، فبالكاد نظر آش إليها وهو يشكرها بأدب بارد على الطعام الذي وضعته أمامه كما لم يسألها عن سبب عدم جلوسها معهما. وخطر لها وهي تتناول غداءها وحدها أنه سرّ لعدم اضطراره لمواجهتها.

وعندما أنهوا الطعام وفرغت من غسل الصحون عادت إلى غرفتها وأخذت حماماً طويلاً منعشاً ثم غيرت ملابسها. ستتجنّب حمامات الشمس في المستقبل، أما الآن فهي بحاجة إلى ما يشغلها، إلى شيء يمنعها من التفكير فيه مرة أخرى.

كانت قد لاحظت وجود أدوات تنظيف في المطبخ فقررت أن تهتم

www.elromancia.com

بنظافة الصالون.

لو كان أبوها هنا لما صدق عينيه وهو يراها تلمع الطاولات وتمسح الأرض، لكنها، ولأول مرة في حياتها تشعر أنها نافعة. وراحت رائحة الطعام تنبعث من المطبخ فتشممتها بلذة.

أحداث الساعات الأربع وعشرين الماضية جعلتها تلاحظ جانبية الحياة على المراكب. ربما بإمكانها أن تتعلم الطهي بشكل جاد لتصبح فرداً من طاقم مركب آخر... ومن الأفضل أن يكون ذلك في بلد آخر في الناحية الأخرى من العالم. رغم أنها تصورت استياء أبيها عندما يعلم بذلك.

وقفت تمسح العرق عن جبينها وهي ترتجف من الضيق بعد أن تصورته أمامها. لكن هذا سخيف فالسيد كليف يبعد مئات الأميال عن جزر الكاريبي التي تعتبر آخر الأماكن التي يمكن أن يفكر في البحث عنها فيها. هذا إذا ما اهتم بالبحث عنها.

فلا بد أن هربها مع رامون جعله يغضب. ولعل غضبه جعله يتصرف كما اعتاد أن يفعل مع الذين لا يمكنه التحكّم بهم وهو أن يشطبهم من حياته.

كم من المرات رأته يتصرف بهذا الشكل؟ فلماذا تظنه سيعاملها بشكل مختلف؟ كما أن رامون أخفى آثارهما بعناية بالغة. وهي تتذكر كيف اهتم بذلك اهتماماً كبيراً، فترك آثاراً زائفة خلفها متعمداً، والح على ألا يدعهم يتمكنون من اقتفاء أثرهما. وقد فسرت ذلك بسذاجة بأنه رغبة مخلصة في إخفائها عن أبيها ليكسبا الحرية.

واعترفت بأسف بأنها كانت خطة محكمة لكن فائدتها الوحيدة هي وقوعها في نوع جديد من العبودية.

عبودية لم تجد في أعماقها رغبة حقيقية في الهرب منها. وكان لهذا الاعتراف وقع المطارق في نفسها.

استقامت واقفة ببطء، شاعرة بألم في أعماقها امتزج بالمرارة وهي تستعيد فجأة ذكرى تلك اللحظات القصيرة التي وجدت فيها نفسها بين ذراعي آش.

وشهقت وهي تهز رأسها محاولة بيأس أن تعود إلى الواقع محدثة نفسها بألاّ تفعل ذلك. راحت تكرر أن ما من مستقبل لها مع آش، لعل صوابها يعود إليها في النهاية.

وحاولت أن تتجاهل صوتاً خفياً في أعماقها يهمس لها بأن الأوان فات على ذلك، وأنها ضاعت إلى الأبد.

www.elromancia.com

٦ - لن يعود

يجب ألاّ يعلم آش شيئاً عن مشاعرها نحوه. هذا ما بقيت تكرره لنفسها طيلة النهار، يجب ألاّ تسمح له بأن يشك للحظة بالمشاعر التي تغلي في داخلها.

وفكرت في أنها تفضل أن تعود إلى نادي ماماريتا على أن يكتشف شعورها نحوه. كانت بحاجة إلى أن تتمرن على عدم الاكتراث، إذا أرادت أن تتخلص مما يذكرها بهذه الرحلة القصيرة، وأن تحتفظ بكرامتها مصانة.

وعندما يصلون إلى جزيرة سانت هيلير عليها أن تبتعد من دون أن تنظر خلفها، وأن تتعلم مما حدث.

وابتلعت غصة في حلقها، لا أسف ولا اتهام لأحد مهما كانت صعوبة ذلك. فرغم أن بإمكانها أن تحافظ على كرامتها مصانة، إلا أنها لا تستطيع أن تضمن ذلك لقلبها. وتأوّهت بتعاسة: يا إلهي، ما الذي أفعله بنفسي؟

أولاً رامون... والآن هذا... هذه المصيبة.

ألا تتعلم قط؟ أتراها تخطط للخسارة طوال حياتها في سعيها خلف رجال غير مناسبين؟

ولكن، ألا تراها تبالغ في ردّ فعلها؟ وكما قال آش بنفسه أن لا شيء حدث. أراد أن يعانقها وعندما رفضت هز كتفيه من دون اهتمام.

في الواقع، فكرة أنها هي التي تراجعت أولاً شكّلت عزاء بسيطاً لأن

هذا ما كان ينبغي أن يحصل منذ البداية.

ربّاه، أنا أكاد لا أعرفه. أنا لم أعرفه إلا منذ يومين رغم أنني أشعر وكأنني أعرفه منذ الأزل، وهذا لا يشكل أساساً لأية علاقة... إنني أستحق أكثر من مجرد علاقة عابرة.

كما أنّ هذا يناقض مبادئها التي لطالما آمنت بها. لقد اعتقدت أنها تحب رامون بشكل جاد، ومع ذلك انتظرت أسابيع قبل أن تقرر الزواج منه.

نظرت إلى نفسها في المرآة ومرّت بأصابعها بأسف على شعرها القصير الأسود. استغربت نفسها من كافة النواحي وتنهدت. من ناحية أخرى كان الخلاص في الأسابيع القليلة الماضية كل هدفها فلم تستطع القيام بأي شيء آخر.

في الوقت الحالي، عليها أن تجتاز هذه الليلة. والأهم من ذلك ألاّ تبدو خائفة من مواجهته في الصالون أو في غرفتها، فسيشكل هذا خيانة لنفسها. عليها أن تبدو باسمة، واثقة من نفسها وكأن ما من همّ لديها في العالم وكأن تلك اللحظات المدمرة التي عاشتها بين ذراعيه لم يعد لها أثر. هذه طريقة التصرف الوحيدة.

أخرجت من خزانتها ثوباً هادئاً عادياً لكنها عادت فغيرت رأيها. واختارت على سبيل التحدي، تنورة طويلة تصل إلى الكاحلين بلون القشدة مطبّعة بأزهار استوائية وقميصاً من دون كمّين.

حدّثت نفسها بأن تخرج بشكل جميل، وهي تمرر يدها على القماش الحريري فوق وركيها. وسارت في الممر فيما فكرة أن آش لن يشعر بالأسف عندما تتركه تشغل بالها. فكلمة (يا ليتني) حُذفت من قاموسه، وهي تعرف هذا. ستكون حمقاء لو توقّعت غير ذلك. وخطر لها أنها فعلاً حمقاء فتنهدت.

* * *

كان الطعام لذيذاً قدم معه الأرز بالبازيلا كما علّمها لورنت أن تطهيه مع الزبدة. وعندما وضع آش شوكته قال لها باسماً عبر المائدة التي زيّنتها بشموع صغيرة: «هذا محيّر، يبدو أن معلوماتك زادت منذ الصباح».

تمتمت تشيلي بشيء ما ثم ركّزت اهتمامها على بقية الأرز في صحنها.

بالرغم من كل الاستنتاجات التي توصّلت إليها ما زالت تجد آش رفيقاً يشغل البال. هو أيضاً أراد أن يترك انطباعاً في ليلتهما الأخيرة في البحر فارتدى سروالاً أنيقاً مع قميص أبيض مفتوح عند العنق أبرز سمرته. وسحرتها رائحة العطر الغالي الثمن التي فاحت منه.

كان يتحدث إلى لورنت بصوت خافت عندما دخلت غرفة الطعام محاولةً أن تخفي شعورها بالخجل، فسكت على الفور، رافعاً حاجبيه بحدّة وقد تحوّل انتباهه إليها كلياً.

كان ذلك مؤقتاً فقط إذ عاد باهتمامه إلى لورنت. لكنها أدركت أثناء تلك اللحظات القليلة أنه كان ينظر إليها، ولا يرى غيرها، وقد لمعت عيناه.

أخذت نفساً عميقاً ونظرت إليه عبر المائدة: «لا أدّعي المهارة فقد علمني الخبير. شكراً يا لورنت».

هزّ كتفيه: «إن لدي عيناً نقّادة. كنت أنصح آش بأن يستخدمك في المركب بشكل دائم».

وساد صمت، قطعته بضحكة قبل أن تقول: «لا أظن أنّ ذلك سيرضي أياً منا، كما أنّ لديّ حياتي الخاصة. وبالمناسبة هل يمكنني أن أستعيد جواز سفري من فضلك؟».

قالت جملتها الأخيرة مخاطبة آش فأجاب: «الآن؟ لماذا؟ هل أنت مصممة على متابعة رحلتك سباحة؟».

- لا، إلا إذا اضطررت لذلك، لكنني سأحتاجه حال وصولنا إلى

الجزيرة لإثبات هويتي أمام القنصل.

- لا داعي للعجلة فغداً هو يوم السبت وسيكون المكتب مقفلاً حتى يوم الإثنين.

- آه لا! لن تتكرر المأساة. ولكن ماذا لو كان هناك أمر مستعجل؟ حالة طارئة؟

فقال: «لا أظن أن مشاكلك ستؤخذ بعين الاعتبار. كما أننا لا نحب الحالات الطارئة».

فتصلب جسدها وقالت: «أتعني أنه لا بأس إذا ما انتظرت وحيدة غريبة ما دام القنصل يلعب الغولف؟».

فقال: «بل يلعب كرة المضرب كما أظن. لكن لا تقلقي... لن تنامي على الشاطىء».

- من يقول ذلك؟

فلوى فمه ساخراً: «حسناً، الشرطة المحلية لا تحب التشرد».

عضت شفتها وسألت: «هل يمكنني أن أبقى على ظهر المركب حتى صباح الإثنين؟».

كانت تكره أن تطلب منه خدمة أخرى. هزّ آش رأسه قائلاً: «لن يسمح صاحب المركب بذلك».

ابتلعت ريقها ونظرت إلى لورنت قائلة: «لا أظن...».

فبسط يديه وقال بأسف: «بيتي ليس فسيحاً، يا عزيزتي. وزوجتي مقتنعة بأن النساء الأخريات ينجذبن إليّ، ولهذا أظن أن حضورك... سيضايقها. هل رأيت المشكلة؟».

فقالت باسمة: «نعم، طبعاً. في هذه الحالة، من الأفضل أن أذهب إلى ماماريتا المحلية. ألا يوجد واحدة هنا؟».

فقال: «أشك في ذلك. ولكن، أليس هذا قراراً متطرفاً؟».

فقالت: «الوضع اليائس يستلزم حلاً يائساً».

www.elromancia.com

- ثمة أماكن محترمة يمكنك الإقامة فيها في سانت هيلير.

- أنا واثقة من ذلك. إنها أماكن غالية الكلفة.

فقال: «هذا طبيعي. فلماذا لا تدعيني أستضيفك أثناء وجودك في سانت هيلير؟».

فقالت بهدوء: «لا أظنها فكرة جيدة».

سأل بابتسامة بطيئة: «كلا؟ هل لك أن توضحي السبب؟».

فكرت غاضبة في أنه يتحداها أن تتهمه بالرغبة في مشاركتها الغرفة، لكنها لن تقع في هذا الفخ، لا سيّما أمام لورنت. توتر فمها، لكنها قالت بهدوء: «لأنك ساعدتني كثيراً حتى الآن، وقد حان الوقت لأتحمل مسؤولية نفسي».

فقال: «حسناً! لن يجادلك أحد في هذا. لكن ربما عليك أن تنتظري حتى تتسهل أمورك».

تكلم بعذوبة فائقة، فتملكها الإحباط والمرارة. واتسعت ابتسامته وهو يضيف: «هيا دعيني أساعدك لآخر مرة ويمكنك أن تردي لي الجميل في ما بعد».

فابتلعت ريقها وقالت: «أرجو أن تثق بذلك وإن كنت غير واثقة متى سأتمكن من ردّه».

- يمكنك أن تدفعي لي شيئاً على الحساب الليلة. على أيّ حال أنت تعلمين ما أريده حقاً.

وجدت تشيلي نفسها تتجمد، لكن عندما رأت النظرة الماكرة في عينيه، عادت واسترخت ثم قالت بمرح: «ولمَ لا؟ على أي حال أنا لا أطهو العشاء وحدي ولهذا أنا مدينة لك. هل لكَ مطلب خاص؟».

التفت آش إلى لورنت قائلاً: «لورنت هو الموسيقار هنا، لماذا لا تحضر قيثارتك؟ ميشيل ستغني لنا».

فرفع لورنت حاجبيه وقال: «بالتأكيد هذا يشرفني».

وعندما أصبحت وحدها مع آش، شعرت بالتوتر يعود إليها، وتصارعت في داخلها الرغبة مع العقل.

نظرت إلى ضوء القمر ينعكس على صفحة المياه، وقالت بشيء من التردد: «إنها ليلة رائعة الجمال».

- نعم، جميلة جداً.

أدركت أنه كان ينظر إليها ولا ينظر إلى حيث تشير. شعرت بحرارة نظراته، فخاطبته في سرّها قائلة: لا تفعل هذا بي... أرجوك.

عليها أن تتخلص من سحره بطريقة ما، فأخذت تجمع الصحون قائلة: «عليّ أن أخلي المائدة».

- سنفعل هذا أنا ولورنت. وفري قوتك إلى ما بعد.

- ما بعد؟

أوشكت أن تعض لسانها، فقد كان السؤال حاداً للغاية... ماذا يعني؟ كان سؤالها متوتراً، وكيف لا يكون كذلك... بعد الطريقة التي كان ينظر فيها إليها؟

قال: «لأنك ستغنين وأظن أنّ ذلك سيرهق أنفاسك».

فقالت شاعرة بالحماقة: «حسناً... نعم».

أشعل سيجارته وهو يراقبها وأهدابه تظلل عينيه: «هذا اللون يناسبك حقاً لكنني واثقٌ من أنك تعلمين هذا».

- إنه أول وآخر عشاء لي على ظهر المركب ففكرت أن أرتدي ثياباً جميلة... أنا محظوظة لأن ثيابها تناسبني.

فابتسم بفتور: «محظوظة جداً».

ساد صمتٌ آخر ومدّ يده يأخذ سيجارة أخرى.

قالت: «لم... أكن أعلم أنك تدخن».

- وأنى لك أن تعلمي؟ أنا أفعل ذلك نادراً، لا سيّما عندما أكون متوتراً. أدرك أنها عادة سيئة، عليّ أن أتركها قريباً جداً.

www.elromancia.com

سألته: «وهل تشعر الآن بالتوتر؟».

فأجاب: «طبعاً. عليّ أن أوصل مركباً فخماً إلى سانت هيلير فضلاً عن أمور أخرى».

شعرت بالارتياح وهي ترى لورنت يعود حاملاً قيثارته وهو يبدأ العزف: «ماذا تحبين أن تغني؟».

هزت رأسها: «إعزف أيّ شيء وإذا كنت أعرف الأغنية فسأشاركك».

فكّر لحظة، ثم أخذ يعزف لحناً عذباً يختلف عما توقعته من ألحان محلية. قال: «أظنك تعرفين هذه الأغنية «سعادة الحب»؟».

وكانت تعرفها جيداً بكلماتها التي تتحدث عن الخيانة والحب الضائع، وأوشكت أن تطلب منه أن يختار أغنية أخرى، لكنها عادت فأدركت أن هذا تصرف غير حكيم إذ قد يفضح مشاعرها الهشة. لا يمكنها أن تجازف بذلك خوفاً من أن ينظر إليها آش ويرى أكثر مما يجب.

لذا رأت أنه من الأفضل أن تغني وتنتهي من الأمر.

تركته يعزف اللحن ثم انضمت إليه بالغناء بصوتها الدافئ القوي. غنت الأغنية بأكملها بالفرنسية، مفرغة حزنها وأساها في أدائها ثم كررت الأغنية بالإنكليزية: «سعادة الحب لا تدوم سوى لحظة فيما آلام الحب تدوم مدى الحياة».

وتركت كلمات الجملة الأخيرة ولحنها تسري مع نسيم الليل لتحمل معها الذكريات.

عندما انتهت ساد الصمت لحظة، قال لورنت بعدها: «كان هذا رائعاً، ألا تظن ذلك يا آش؟».

فقال آش وهو ينظر إلى تشيلي لاوياً فمه: «رائع الجمال رغم أنه لم يكن ما خطر لي. إنها مشاعر سلبية».

فقالت: «سلبية أم واقعية؟ كل واحد منا يفسر الأمر بحسب رأيه».

- أي وجه تختارين يا تشيلي؟

كان السؤال رقيقاً، لكن نظرته تسمّرت عليها وبدت جائعة تنبهها إلى أنه يضمن سؤاله أكثر مما تعنيه كلماته.

(سعادة الحب لا تدوم سوى لحظة)، ما زالت هذه الكلمات تتردد في ذهنها بكآبة. فمهما كانت تلك اللحظة محمومة ورائعة، قد تتبعها الوحدة إلى الأبد. وهذا أمر لا يمكن أن تنساه أو تتناساه.

رفعت رأسها وقالت بهدوء ووضوح: «الأمر بسيط للغاية، ما أختاره هو ألاّ أكون تعسة بقية حياتي. والآن إذا سمحت، سأقول لكما تصبحان على خير».

وابتعدت مرفوعة الرأس من دون أن تسرع أو تنظر خلفها. لكن عندما وصلت إلى آخر الممر، توقفت ومالت على الجدار وهي ترتجف. ضغطت بيدها على فمها المرتجف وهي تهمس: يا إلهي إلى متى يمكنني أن أستمر في الإدعاء؟

* * *

في غرفة الطعام، ساد صمت خرقه لورنت أخيراً بقوله بصوت هادىء: «لديك مشكلة حقيقية يا صديقي».

شحب وجه آش وتناول سيكارة أشعلها قائلاً: «ليس بالأمر الذي لا يمكنني أن أعالجه».

فقال لورنت: «عالج أولاً مسألة فكتور. اشرح له لماذا قررت أن تبقي الفتاة في سانت هيلير بدلاً من أن تعيدها إلى إنكلترا حسب التعليمات. بعدئذ، انظر كيف تقترب من الحقيقة».

فقال آش: «لقد أوضحت منذ البداية أن المفاوضات النهائية ستجري حيث أنا موجود».

فقال لورنت: «لسوء الحظ لا يريد السيد كليف أن يجتاز نصف العالم لكي يدفع لك أجرك ويأخذ ابنته، وهو ليس بالرجل المعتاد على عدم

احترام إرادته».

هزّ آش كتفيه وقال: «يمكنه أن يقبل ذلك أو يرفضه ما دام سيدفع لنا المبلغ المتفق عليه».

حدّق لورنت فيه: «أما زلت مصراً على أن هذا الأمر يتعلق بالمال فقط؟».

- ماذا هنالك غير ذلك؟

- لماذا إذاً تحتفظ بها معك بدلاً من أن ترسلها على أول طائرة من سانت فنسنت أو بربادوس؟

- هذا ما عليها أن تقوم به ومع ذلك لم تذكر أباها قط. ألا ترى هذا غريباً؟

فنظر إليه لورنت ساخطاً وردّ: «إنه يستعيدها بالمال، هذا كل ما عليك أن تعرفه. من الواضح أنه يعتبرها بضاعة فاسدة فأعد له ابنته ولا تجعل الوضع أسوأ مما هو عليه».

فقال آش: «لماذا؟ خوفاً من أن يخفّض الثمن؟».

فهزّ لورنت رأسه: «لكنك قلت إن الأمر يتعلق بالمال فقط. أظنك تخدع نفسك يا صديقي».

حملق آش فيه وقال: «عندما أحتاج إلى نصيحتك سأطلبها».

فقال لورنت ضاحكاً: «الحياة قصيرة كما أظن».

وأخذ يدندن لحن سعادة الحب بصوت خافت.

* * *

جلست تشيلي على حافة السرير وتشبثت أصابعها بحافته متشنجة.

أخذت تحدث نفسها بأنها قامت بالتصرف الصواب... التصرف المنطقي... التصرف الوحيد.

لقد أوضحت لآش أنها نوت إبعاده عنها طوال فترة تواجدهما معاً مهما طال ذلك.

يومان إذا كانت محظوظة... إذا تعاون القنصل وصدق قصتها غير المعقولة. عندئذ، ستخرج من حياة آش إلى الأبد.

ولكن إلى أين؟

هذا ما لم تفكر فيه بعد بوضوح فقد شغل الحاضر ذهنها بحيث لم يترك مجالاً للمستقبل. لكنها بدأت تتقبل فكرة أنّ آش لن يكون جزءاً من هذا المستقبل وذلك لأسباب كثيرة.

كان غامضاً جداً ما زاد من سحره. كما أنه أنقذها، وهي ستكون ممتنة له دوماً. يوماً ما لن تتذكر سوى عرفان الجميل وستنسى بقية القصة. لكن عليها الآن أن تركز على حياتها. بدا واضحاً أن ما من خيار أمامها سوى العودة إلى إنكلترا. إنها بحاجة إلى مال، ورغم أن دخل المال الذي ورثته عن أمها كان متواضعاً، إلاّ أنه سيساندها حتى تجد عملاً ما وسريراً تنام فيه، إذ لم يعد بإمكانها أن تدفع إيجار شقتها القديمة.

ولا بد أن رامون سحب من حسابها المصرفي مبالغ ضخمة وعليها أن تواجه هذا الاحتمال. أن تحترف الغناء أمر يفوق قدرتها لكن قد تنفعها دروس في الطهي رغم أنها نبذت فكرة العمل على مركب فاليابسة أكثر أماناً. وربما يمكنها أن تتعلم العمل على الكمبيوتر.

وتنهدت. بدا لها المستقبل كئيباً للغاية. لقد تعلمت في الأسابيع الماضية دروساً في الحياة إنما دروس مكلفة جداً.

عليها أولاً أن تصل إلى القنصل وتجعله يساعدها، لأنها لم تشأ أن تفكر في ما قد يحصل إذا رفض أن يساعدها. فهم لا يتعاطفون دوماً مع الناس الذين يلتمسون مساعدتهم من دون سبب. عندئذ، ستضطر لأن تلتمس العون من آش مرة أخرى. فكرت في ذلك وقلبها يخفق بألم. ليس لديها خيار آخر، فهي لا تستطيع أن تنتظر مخلصاً آخر ينقذها. ونزلت عن السرير وأخذت تخلع ثيابها فيما رأسها لا يزال يدور.

عليها أن تستعير مزيداً من الملابس. لا يمكنها أن تتجنب ذلك فهي لا

تستطيع أن تزور القنصل بتنورة مكرّشة ما يمنعه من احترامها.

سأختار بعض الملابس الداخلية، وسروالاً من القطن وقميصاً، هذا ما فكرت فيه وهي تعيد التنورة والقميص إلى الخزانة.

عليها أن تجد طريقة لتعوض بها صاحبة الملابس عن استعمالها ملابسها، رغم أنها قد لا تفتقد ما استعملته. فمعظمها يبدو جديداً ولعلها تشتري ملابس جديدة في كل مرفأ. لكنها ستعيد ما يمكنها إعادته مغسولاً ومكوياً...

استحمت بسرعة ثم تزينت وسرحت شعرها قبل أن تخلع قميص نومها.

وقفت تنظر إلى جسدها في المرآة، تنظر لأول مرة إلى نفسها بعين رجل، متذكرة كيف حدق فيها آش بلهفة ورغبة.

لم ينظر إليها رجل من قبل بهذا الشكل وربما لن يحدث ذلك مرة أخرى.

وأغمضت عينيها وهي تضغط بكفها على فمها. لقد اختارت الحكمة والشجاعة وأطاعت عقلها وليس رغبتها.

ولكن هل سيقبل آش كلمة «لا» أم سيختار أن يأتي ويبحث عنها.

وجدت قارورة من عطرها المفضل في الحمام فأخذت تضع منه على عنقها وصدرها وباطن مرفقيها ثم اختارت أحمر الشفاه وأصلحت خطوط فمها. بدت لها الفتاة التي في المرآة غريبة تماماً بلونها المتوهج قليلاً وعينيها الواسعتين الناعستين.

شعرت بألم في صدرها وقد تملكها الحنين. إنها امرأة قبل أيّ شيء... امرأة تنتظر متلهفة إلى حبيبها. سيأتي إليّ، لا بد من ذلك...

سارت إلى الباب ووأزالت القفل، ثم أطفأت الأضواء كلها ما عدا الضوء الصغير بجانب سريرها واندست تحت الأغطية، حيث استقرت.

وعندما سمعت أخيراً وقع قدميه مقترباً من الممر توقف قلبها عن

الخفقان.

ابتلعت ريقها وتسمّرت عيناها على الباب بانتظار أن يقرعه.

أصبحت الخطى بطيئة وتوقّف خلف بابها ثم ساد صمت من دون نهاية. سمعت صوتاً خفيفاً، ورأت مقبض الباب يتحرك بخفة، فتوتر جسدها كله شوقاً لكنه بقي مقفلاً. وبعد لحظة، لاحظت أن المقبض توقف عن الدوران ثم سمعت الخطوات تبتعد حتى تلاشت. وسمعت صوت بابه يغلق نهائياً.

حينئذ أدركت أنه لن يعود... فانقلبت على وجهها تدفنه في الوسادة وقد تصلب جسدها وأصبح ببرودة الحجر ثم بكت.

٧ - هل ستشفى؟

في الصباح التالي استيقظت تشيلي باكراً وبقيت لحظة مستلقية تنظر من النافذة إلى السماء الصافية.

عاصفة الدموع التي انتابتها الليلة الماضية تركتها منهكة. وكانت قد عضت طرف الوسادة لتخنق تأوهاتها، خوفاً من أن تسمع خارجاً، لكن يبدو أن النوم غلبها في النهاية.

استطاعت أن تتذكر أحلاماً قصيرة مزعجة، لكن أي منها لم يترك اثراً في نفسها.

ربما أنّ هذا يوم آخر وواقع آخر، عليها أن تنسى الأحلام كلها. عليها أن تنهض وتستعيد توازنها متظاهرة بأن كل شيء على ما يرام.

ربما عليّ أن أتخذ التمثيل مهنة، كما أخذت تفكر عابسة وهي تنهض من السرير.

العطر الذي وضعته الليلة الماضية ما زال يفوح منها ويشعرها بغثيان غامض فأدركت أنها لن تضعه بعد اليوم.

بدت شاحبة في المرآة وشعرت بعينيها تؤلمانها لكنها تمالكت نفسها نوعاً ما ولم تتم ملامحها عن أيّ شيء.

استحمت بسرعة ثم لبست سروالاً ورديا وقميصاً مناسباً وخرجت إلى المطبخ وهي تستعيد كل ما علمها إياه لورنت في الأمس.

اليوم، قطّعت الخبز بشكل منتظم وحمّصته جيداً كما كانت القهوة ثقيلة عطرة، والبيض مسلوقاً كما يجب. وقرعت الجرس راضية عن

نفسها.

كانت تضع الطعام على المائدة في الصالون عندما دخل آش لابساً سروالاً قصيراً ووقف عند الباب يتأملها قليلاً.

قابلت نظراته بابتسامة تعمدت أن تكون باردة. فقال ببطء: «لقد استيقظت باكراً، ألم تستطيعي النوم؟».

فأجابت كاذبة: «نمت حالما لمس رأسي الوسادة. ولكن بعد معاناة أمس فكرت في أن أبدأ باكراً اليوم. على أي حال لا أريد أن أتلقى توبيخاً في هذه المرحلة من الرحلة».

وضحكت بمرح. نظر آش إلى المائدة رافعاً حاجبيه وقال: «كل شيء يبدو رائعاً. أنت محيرتني».

سكبت له القهوة وناولته الفنجان وهي تقول بهدوء: «الأمر ليس مدهشاً حقاً فأنا أحاول ألاّ أقترف الغلطة السخيفة نفسها مرتين وهذا كل ما في الأمر. سأحل صينية فطور لورنت إليه».

فقال: «سأفعل ذلك. ابقي أنت هنا وتناولي فطورك وسأعود حالاً... أظن أنّ علينا أن نتحدث».

إنهما وحيدان. جلست على الكرسي وقد جف فمها وأخذت ساقاها ترتجفان. أخذت جرعة من عصير الأناناس البارد، وفكرت بيأس... في ما يريد أن يتحدث؟ ولِمَ الآن وهي متلهفة لأن تتجنب الانفراد به؟

وتساءلت بذعر مفاجيء عما إذا عاد إلى بابها الليلة الماضية وسمعها تبكي.

إذا حصل هذا، فماذا سأقول له وكيف أشرح له الأمر؟

لكن الأسوأ هو إذا ما قرر أن يخبرها لما غير رأيه وابتعد عنها الليلة الماضية. فمهما كان السبب الذي سيعطيه، لم تكن واثقة من أنها ترغب في أن تسمعه.

معرفتها بأن لا مكان لها في حياته شيء، وسماعها ذلك من فمه شيء

آخر مختلف. فلنفرض أن مشاعرها غلبتها مرة أخرى؟ يا إلهي! سيكون في ذلك مذلة كبرى لها. فهي ستبكي من أجله أمامه.

كما لن تحتمل أن يعود ليجدها جالسة بهذا الشكل، تحدق في الطعام. لذلك استعادت تصميمها، وأرغمت نفسها على أن تتناول الطعام مظهرة متعة وشهية وكأن الأمور كلها طبيعية.

سكبت قهوة لنفسها ثم شرعت بتناول فطورها وعندما عاد آش وجلس أمامها قالت له بمرح: «بدأت بتناول الطعام من دونك. لا أظنك تمانع».

فقال بأدب: «أبداً. قد لا تصدقين هذا لكنني مرن للغاية».

فقالت وهي ترغم نفسها على الأكل: «سأحاول أن أتذكر هذا».

قال بعد صمت قصير: «لقد مدح لورنت لهجتك الفرنسية كثيراً».

فاحمرّ وجهها: «هذا لطف منه».

- من المؤسف أن نصل إلى سانت هيلير بهذه السرعة وإلا لكنت أريتنا مواهب أخرى خفية.

فقالت: «أشك في ذلك. يمكنني أن أغني، وأنا أتكلم الفرنسية وهذا ليس كثيراً».

- ويمكنك أن ترقصي أيضاً. علينا ألاّ ننسى ذلك حتى لو كان أداؤك قصيراً.

ولمعت عيناه فاحمر وجهها أكثر وقالت: «لا أريد أن أتذكر ذلك».

فقال: «حسناً هنا نختلف. لأن هذا سيبقى أجمل ذكرياتي. أين تعلمت الفرنسية بهذا الشكل الجيد؟».

- أمي فرنسية.

فقال: «هذا يفسر اختيار اسمك ميشيل».

فهزت رأسها قائلة: «ليس تماماً، فقد أطلقوا عليّ اسم جدّي الذي مات قبل أن أولد وإلا...».

وسكتت، فنظر إليها وسألها: «نعم؟».

فقالت تكمل حديثها: «وإلا لما وافق أبي على ذلك فلطالما كره هذا الاسم. أراد أن يسميني إليزابيث. في الواقع راح يناديني بهذا الاسم بعد موت أمي حتى اقتنع في النهاية بأن هذه الفكرة ليست جيدة».

فقال بمرح: «إنه رجل قوي الإرادة، من الذي استطاع أن يقنعه؟».

فأجابت: «مربيتي، وطبيب الأسرة، وعمتي مارغريت. على أيّ حال، هذا لا يهم حقاً فقد حصل منذ وقت طويل».

ومع ذلك تذكرته؟

وفكرت في أنها تتذكر أكثر من ذلك. تتذكر كيف حاول أبوها أن يمحو أثر أمها من البيت وكأنها لم تعش فيه قط، أو كأنه يحقد على نفسه لزواجه من فتاة أجنبية تغني في ملهى فحاول أن يخنق رغبتها في تعلّم الموسيقى.

فأجابت: «ثمة أمور لا تنسى. هل هذا كل ما تريد أن تعرفه؟».

- لا أريد أن أعرف حتى جزء منه.

- على أيّ حال، هذا كل ما أنا مستعدة لقوله في هذا الموضوع. ولكن هل لي أن أسألك سؤالاً؟ متى سنصل إلى سانت هيلير؟

- بعد الظهر مباشرة.

فقالت: «فهمت. وأنت واثق تماماً من أنني لا أستطيع الاتصال بالقنصل أثناء عطلة نهاية الأسبوع».

- إياك أن تحاولي لاسيّما إذا رغبت في أن يرضى عنك. على أيّ حال لِمَ العجلة؟

فقالت: «ربما لم يخطر في بالك أنني أريد أن أتابع حياتي».

- كلا، حتى أنني لم أنتبه إلى أنك تعلمين ماذا تريدين من حياتك. وهكذا، ماذا في ذهنك؟

- هذا ليس من شأنك.

فقال ساخراً: «هذا غير صحيح. المثل القديم يقول: إذا أنقذت شخصاً ما، يبقى ملكك إلى الأبد. لهذا، أنا أهتم بمستقبلك. كما أنك تخفين عني الكثير ما يزيد من فضولي».

توتر فكها: «أتحاول لعب دور المنقذ مجدداً».

- أنا لا أمارس أيّ الاعيب يا ميشيل. في الواقع، أنا جاد إلى حدّ كبير. فهل لنا أن نكف عن هذا العبث ونبدأ بالحديث الجاد؟

احمر وجهها وقالت: «حسناً جداً إذا كان لا بد من ذلك».

- إلى أين تريدين الذهاب بعد سانت هيلير؟ إلى بيتك؟

فترددت وقالت: «ليس لدي بيت بالمعنى الحرفي للكلمة. لكنني سأتجه إلى لندن كما أظن. أعرف أناساً يمكنني المكوث معهم حتى أتدبر أموري».

- يا إلهي!

- ألا يعجبك هذا؟

ورفعت وجهها متحدية، فأجاب: «إنني أصاب بكوابيس بعضها أجل من هذا».

- لقد مكثت معك بينما أنت غريب عني تماماً.

- ما أغرب تفكيرك هذا بينما أشعر أنني عرفتك طوال حياتي!

شعرت بغصة... راحت هذه الكلمات تحوم في الهواء، لكنها لم تستطع أن تفكر بجواب أو حتى أن تواجه نظراته. ولهذا شغلت نفسها بجمع الصحون.

وأخيراً عاد يقول: «هل المبيت على أريكة بعض الناس هو مشروعك الوحيد؟».

- حالياً نعم. أرجوك لا تهتم لذلك فأنا سأقصد أصدقاء لي كما تعلم.

رفع حاجبيه: «هل هم الأصدقاء نفسهم الذين سمحوا لك بأن تهربي

مع صديقك؟».

فأجابت: «في الواقع، لم أخبرهم عن رامون، وعما كنا نخطط له. لم أذكر ذلك لأحد».

- ولماذا كل هذا التكتم؟

لم تخبرهم لأنها كانت خائفة من أن يعلم أبوها بهذا الأمر فيمنعها كعادته... هزت كتفيها وقالت: «حتى ذلك الحين، كانت حياتي كتاباً مفتوحاً. شعرت بمتعة في أن أخفي شيئاً ولو مرة. كما أنّ رامون لم يشأ أن يقابل أصدقائي. كان يقول إنه يريد أن يكون معي فقط وليس مع أناس آخرين».

- ما أجمل هذا الاهتمام منه!

- هذا ما ظننته حينذاك. لكنني لن أكون ساذجة بعد اليوم. سأذكّر نفسي دوماً بأن كل شخص منا يخفي شيئاً.

- هذا لا يبشر بالخير بالنسبة إلى علاقات المستقبل.

سارت إلى المطبخ حاملة الصينية فشعرت به يتبعها. فقالت: «لن أقيم أي علاقات في المستقبل. أريد أن أحتفظ باستقلاليتي».

فقال برقة: «سمعت كلماتك هذه لكنني لست مقتنعاً. إن شفتيك أنعم من أن تتخذا موقفاً كهذا. يوماً ما سترغبين في مشاركة حياتك مع أحد ما».

فقالت بصوت مرتجف وهي تتذكر ليلة البارحة: «أعاني مرة أخرى من خيبة الأمل».

تذكرت كيف كانت تحدق إلى الباب متوترة وهي تفكر في وجوده خلفه، وتذكرت حنينها إليه... وكيف تركها تعاني الشوق وخيبة الأمل والحرمان.

وهزت رأسها مضيفة: «لا أظن ذلك».

ساد صمت غريب ثم قال: «لم أكن أدرك أن تأثيره فيك وصل إلى هذا

الحد. أنا... آسف. ولكن الرجال ليسوا مثل رامون كلهم. ستتعلمين كيف تستعيدين ثقتك بهم مرة أخرى يا ميشيل. أنا واثق من ذلك».

فقالت ساخرة: «عليك أن تكتب مقالات صحفية، تدرج فيها هذه النصائح. اضمن لي الوصول إلى قنصل سانت هيلير صباح الإثنين وساكون سعيدة جداً».

فقال بخشونة مفاجئة: «أتظنين ذلك؟ أراك مخطئة يا ميشيل. في الواقع، أشك في أن تكتشفي يوماً المعنى الحقيقي لهذه الكلمة».

وابتعد عنها تاركاً إياها واقفة تحدق في أثره بصمت.

* * *

كانت الطريق متعرجة على طول الساحل، مظللة بأشجار النخيل. سرحت تشيلي بنظرها في الشاطىء الفضي والبحر الذي يتغيّر لونه باستمرار بين الخضرة والزرقة. لكن هذا لا يعني أنه لديها الوقت للافتتان بالمشهد فقد انشغلت بالبقاء في مكانها على سيارة الجيب التي تقلها... إلى مكان ما.

كان السائق رجلاً بشوشاً ذا ابتسامة عريضة يصفر ويدندن أثناء القيادة.

سألته بالإنكليزية والفرنسية عن وجهتهما فاكتفى بهز كتفيه قائلاً: «ليس بعيداً».

ظنت أنه من الأفضل أن تستقل هذه السيارة التي كانت تهتز بها على الطرقات على أن تركب عربة بحصان لكنها رأت الآن أن العربة أفضل. وكانت قد شعرت بارتياح عظيم عندما عرفت أن آش لن يرافقها ما جعل الاعتبارات الأخرى كلها لا وزن لها.

ساعاتها الأخيرة على متن المركب لم تكن سهلة، فقد أتعبتها جداً محاولتها تجنب آش. لم تستطع المغامرة بمواجهته مرة أخرى كما بدا أنه يحرص هو أيضاً على تجنبها. ولحسن الحظ أنّ الاقتراب من سانت هيلير

شغلها، فوقفت بجانب الدرابزين تنظر إلى شاطئها الصخري المرتفع باهتمام حقيقي.

جاء لورنت ووقف بجانبها وهو يتهد راضياً ثم قال وهو يشير إلى المرتفعات: «إنه الوطن. وذلك هو بركاننا وهو السبب في خصوبة أرضنا ومواسمنا».

فقالت: «بركان؟ هل هو خطر؟».

نظر إليها مازحاً: «ليس مميتاً. يمكنك أن تتسلقيه حتى فوهته إذا أردت وتنظري إلى داخله».

فأرغمت نفسها على الابتسام: «لا أظنني سأبقى هنا وقتاً كافياً لكي أتفرج على المناظر. أريد أن أذهب في سبيلي في أسرع وقت ممكن».

فقال متأملاً وهو يهز رأسه: «في أسرع وقت ممكن؟ لا أظن أنّ لدينا تعبيراً كهذا في هذه الجزر».

ضحكت ثم انتبهت إلى أن آش ينظر إليهما. نزلت إلى غرفتها حيث حزمت أمتعتها وغيرت ملابسها فارتدت ثوباً من الكتان بلون القشدة بأزرارٍ سوداء. عندما ستقابل القنصل ستكون بحاجة لأن تبدو وكأنها تعاني من مشكلة مادية مؤقتة وليس كمتشردة في حالة تستدعي العطف. وهذا الثوب يصلح لذلك.

رسا المركب في مرفأ سانت هيلير الفسيح ثم اقترب منهم زورق ليحملهم إلى الشاطىء.

ولم تستطع إلا أن تلاحظ أن لورنت قوبل بالضحك والتربيت على الظهر فيما تعامل الناس مع آش باحترام باسم، ما أثار في ذهنها تساؤلات عديدة.

تساؤلات من غير المحتمل أن تجد أجوبة عليها. وعندما تنحّت جانباً مترددة، تقدم لورنت منها وأمسك بيدها يودعها: «إلى اللقاء يا سيدتي. أنتظر أن أسمع أنك أصبحت مغنية كبيرة عندما نتقابل مرة أخرى».

نظرت إليه تشيلي باسمة وتمتمت بشيء ما. التفتت من حولها تتأمل سطوح البيوت الحمراء بجانب التلة المنحدرة بشكل جميل وذات الألوان المشرقة. وفجأة سمعت صوت آش بجانبها ما جعلها تجفل: «إن غرفتك جاهزة وآسف لعدم تمكني من مرافقتك لكن لدي عمل يشغلني. آلفونس هنا وسيوصلك بكل أمان».

وأشار بيده إلى رجل طويل نزل من سيارة «الجيب» وحمل حقيبة ملابس تشيلي. ودّعها آش وابتعد من دون أن يضيف شيئاً.

حدّثت نفسها وهي تجلس في الجيب أن هذا ما تريده بالضبط وأن عليها أن تتوقف عن التفكير فيه وإلا فستجن. لقد ودعا بعضهما البعض وأصبحت الآن مسؤولة عن نفسها.

عليها أن تركز على ذلك بقية حياتها... وتخطو الخطوة التالية وحدها، من دون مساعدة.

توقعت أن يتوجه بها السائق إلى فندق صغير في سانت هيلير لكن العاصمة أصبحت خلفهما الآن وما زالت سيارة الجيب منطلقة في طريقها.

وبالرغم من تفكيرها الإيجابي شعرت بكآبة في أعماقها، وتشوش في ذهنها، لم تخفف منهما هذه الرحلة غير المتوقعة.

تصورت أنهما متوجهان إلى منتجع سياحي في مكان ما من الجزيرة، وفيما بدت فكرة الحصول على بعض الراحة والاسترخاء جذابة، لم يعجبها أن تقاد إلى مكان مهجور بعيد عن العاصمة لاسيّما وأنّ عليها أن تقابل القنصل نهار الإثنين في الصباح الباكر.

ربما غاب ذلك عن ذهن آش لكنها لم تقتنع بهذا التفسير فهي لا تعرفه رجلاً ينسى... ولكن من ناحية أخرى ما الذي تعرف عنه؟ فهو لم يكشف سوى القليل عن نفسه أثناء معرفتها القصيرة به ما جعله يبدو مزيجاً من الغموض والتلون كالحرباء. إنه أشبه بالبحر الذي لا يستريح

تحت الصخور. وأجفلت ثم رفعت يدها إلى فمها مصدومة وهي تتذكر شيئاً ما.

جواز سفرها ما زال معه. والتفتت إلى آلفونس ثم قالت بالفرنسية إن عليها أن تعود إلى المدينة للبحث عن السيد بريتان لأمر هام للغاية وإنها مسألة حياة أو موت. لكن آلفونس اكتفى بأن ضحك لها وقال شيئاً ما بلهجة محلية غير مفهومة ثم تابع القيادة.

حاولت مرة أخرى: «كلا. عليك أن تعود. أنا حقاً بحاجة إلى العودة».

ظنت للحظة أنه سيفعل ما طلبت منه لأنه استدار بالسيارة فجأة. لكن وبدلاً من أن يعود أدراجه، ترك الطريق الساحلي ليسلك طريقاً ضيقاً لم تلاحظه تشيلي من قبل. سألته لاهثة: «أين نحن؟».

فأشار آلفونس إلى قنطرة من الخشب قائلاً كلمة واحدة: «تحت القنطرة».

تملكها الغضب. يبدو أنهم يخفون شيئاً ما، وتساءلت متى ستحصل على جواب؟

سارا في وادٍ بين أشجار سامقة كادت تغطي وجه الشمس. ومن خلال الأشجار استطاعت أن تلمح خطوط سطح من القرميد.

تمسكت بمقعدها حين توقفت السيارة وشهقت قائلة: «هل هذا هو الفندق؟ المكان الذي تأخذني إليه؟».

فقال باسماً: «نعم يا آنسة هذا هو «آركادي»».

قالت رافعة صوتها فوق هدير المحرك: «لكنني لا أستطيع الإقامة هنا، عليّ أن أسجل جواز سفري وهو مع السيد بريتان. لقد نسي أن يعطيني إياه وعليّ أن أستعيده. هل تفهم؟».

أومأ باسماً ثم تابع طريقه من دون أن يبطىء.

وفكرت يائسة في أنها تركب مع رجل مجنون.

إذا كان المبنى فندقاً فهو صغير للغاية، وقطبت جبينها. ربما هناك غرف ملحقة به لكنها حتى الآن لم تر أياً منها. كما أنها لم تلمح ما يشير إلى أن الفندق يحتوي على بحيرة سباحة. وشعرت بخيبة أمل.

قد لا تكون جزيرة سانت هيلير الأهم في السياحة الكاريبية لكن لا بدّ أنّ أيّ فندق فيها يحتوي على المواصفات الأساسية. وأدركت أنها متلهفة للسباحة، وهي الرياضة المفضلة لديها بعد الرقص.

في البركة قرب بيتها كانت تسبح في الصباح الباكر حتى الإرهاق، فتخفف عن نفسها ما يتملكها من ضجر وإحباط. والآن ها هي تعاني من نوع آخر من الإحباط، واللهفة للسباحة تتملكها.

عندما خرجا أخيراً من بين الأشجار إلى أشعة الشمس واستطاعت أن ترى المبنى بوضوح، وجدت أنها لم تكن منصفة لأنه رائع الجمال.

كان مبنى رائعاً بطابقين، يقف منتصباً بلونه الأبيض وسقفه القرميد وأحواض الزهور المختلفة الألوان. أحاطت بالطابق الأرضي شرفة مسقوفة، تحرس نوافذ مستطيلة مغلقة.

عندما توقفت السيارة، كان السكون مسيطراً لم يخرقه سوى صرخة خشنة من طير. رأت تشيلي الباب الرئيسي يفتح ويخرج منه رجل مسنّ وقف ينتظر في ظل عامود، ثم تقدم وفتح بابها وحمل حقيبتها ثم قدم لها يده يساعدها على النزول.

كان يرتدي سروالاً قاتماً وقميصاً أبيض من الكتان. قال بابتسامة مؤدبة: «يا آنسة، إسمي هو «كورنيليوس»».

نزلت من السيارة متصلبة وقاومت إغراء أن تدعك أطرافها المتعبة من طول الجلوس. كانت تشعر بالحر والعرق يتصبب منها، وأدركت أن الثوب الذي لبسته ليؤثر في النفوس أصبح الآن مكرمشاً مغبراً.

تنفست بعمق وقالت: «آسفة، لكن ثمة خطأ ما».

والتفتت إلى الخلف وشهقت وهي ترى السيارة تبتعد والفونس يلوح

لها مودّعاً.

حاولت أن تركض خلفها وهي تصيح: «لا تذهب، لا يمكنك أن تتركني وحيدة هنا، هذا غير ممكن».

فقال كورنيليوس وهو يمسك بذراعها برفق ولكن بحزم يقودها إلى الباب: «لا تزعجي نفسك يا آنسة. كل شيء على ما يرام وأنت آمنة تماماً. سآخذك إلى غرفتك وستحضّر لك زوجتي روزالي الشاي».

حدّقت تشيلي فيه: «إذا كنت صاحب الفندق فثمة ما يجب أن تعرفه. لقد أحضروني إلى هنا خطأ فليس لدي جواز سفر أو مال وأريد أن يعيدني السائق إلى المدينة لأحل مشكلتي».

- لا حاجة لجواز السفر أو المال يا آنسة كما أنني لست صاحب الفندق بل مجرد موظف وأنت نزيلة مكرمة.

دخلا إلى الفندق، إلى ردهة فسيحة، يلطف جوّها مروحة في السقف. كانت الجدران عاجية اللون والأرض خشبية بلون العسل. وباستثناء خزانة أدراج مزخرفة وحوض من الأزهار كانت الردهة خالية. لم ترَ أثراً لمكتب استقبال أو أي مظهر من مظاهر حياة الفنادق.

رأت سلماً من الخشب العسلي اللون نفسه، فأدركت أنه من المفروض أن تصعده. لكنها وقفت وقالت: «المكان هادىء جداً. كم يبلغ عدد النزلاء؟».

- أنت فقط يا آنسة غرير.

- فهمت.

لكن هذا لم يكن صحيحاً، إنما ما من فائدة من الجدل. لذا، تبعت كورنيليوس على السلم مستندة بيدها إلى درابزينه الناعم، لمسة الواقع الحقيقية الوحيدة في هذا العالم المضطرب.

قالت: «هل الفندق مخصص للأعمال فقط؟».

- فندق؟

ووقف ونظر إليها مدهوشاً.

- آركادي منزل خاص يا آنسة، وأنت هنا بدعوة من صاحبه السيد «هاورد».

توترت يدها على الدرابزين وقالت: «لكن لا بد أن هناك خطأ ما. لا أعرف شخصاً بهذا الاسم. هل هو هنا؟ أريد أن أتحدث إليه حالاً».

- آسف. السيد هاورد هو في أميركا.

فقالت مدهوشة: «في أميركا. كيف أمكن إذاً...».

وسكتت وقد انكشفت لها الحقيقة فقالت: «أظنني أفهم الآن».

إذاً، هذه هي الخطة التي وضعها بريتان. إنه يعتمد مرة أخرى على طبيعة مستخدمه الطيبة. لا بد أنه واثق جداً من مكانته في الأسرة لكي يستغلها بهذا الشكل. لكنه سيصبح صهره أليس كذلك؟

وأرغمت نفسها على القول باسمة: «أخبرني يا كورنيليوس، هل يملك السيد هاورد مركباً يدعى لابيل ريف؟».

فنظر إليها وأجاب: «نعم يا آنسة. هل من مشكلة؟ هل ما زلت تريدين مغادرة المكان؟».

ردّت: «لا، أبداً ولماذا لا أبقى في هذا المنزل؟».

على أي حال، لقد استفادت من ضيافته في الأيام الأخيرة. فأبحرت على مركبه وأكلت من طعامه، حتى أنها ارتدت ملابس ابنته.

سكتت قليلاً ثم عادت تقول بصوت طبيعي: «أظن أنّ لديه ابنة أليس كذلك؟».

فأومأ قائلاً: «نعم يا آنسة، الآنسة جولي معه في فلوريدا».

- ما أجمل هذا! أرجو ألاّ أضطر للنوم في غرفتها. أكره أن أراها تصل فتجدني فيها.

وفكرت بصمت وهي تتذكر الفتاة الشقراء الباسمة في الصورة، أنها تكره أن تراها أصلاً.

- خصصوا لك غرفة الضيوف يا آنسة، لكننا لا نتوقع مجيء السيد هاورد وابنته.

وشعرت تشيلي بالسرور لهذا الخبر.

لكن بالرغم من شكوكها، لم تستطع أن تمنع السرور من أن يتملكها. غرفة جلوس مفروشة بأريكة تكدّست عليها وسائد رائعة، وكراسي تؤدي إلى غرفة نوم فسيحة جدرانها زرقاء اللون وستائرها شفافة بيضاء يحركها النسيم المتسرب من النافذة المفتوحة. وعلا السرير المنخفض الفسيح غطاء جمع اللونين الأزرق والأبيض، أما الحمام فمطلي باللونين العاجي والذهبي.

وفجأة انتبهت تشيلي إلى أن دموعها أوشكت على الانهمار وهي تفكر في أن هذا الترف كله وهذا الجمال هو لتكريمها هي ذات الملابس البالية.

قالت بصوت أجش: «هذا رائع يا كورنيليوس. شكراً».

أومأ برأسه بسرور وقال: «إذا أعطيت ثوبك لروزالي فستغسله وتكويه لك».

خلعت ثيابها وأخذت حماماً طويلاً ممتعاً ثم ارتدت سروالاً بني اللون وقميصاً أسود ثم نزلت إلى الطابق السفلي.

تقدمت لاستقبالها امرأة بدينة في ثوب قطني مقلم، وشملتها بعينيها السوداوين بنظرة ذكية مقيّمة ثم قالت باسمة: «أتريدين بعض المرطبات يا آنسة؟ شاياً مثلجاً أو عصير الأناناس؟».

وقادت تشيلي إلى غرفة جلوس تحتوي على أرائك فسيحة وطاولات منخفضة ومنها إلى شرفة ذات باب زجاجي حيث كان في انتظارها طاولة وكراسي وصينية عليها أباريق مغطاة وكؤوس.

قالت تشيلي: «هذا جميل. هل يمكنني الحصول على شاي من فضلك؟».

وأخذت تنظر إلى روزالي وهي تسكب لها الشاي مع قطع الثلج ثم

www.elromancia.com

تناولت الكأس من يدها. . . وجدت من الرشفة الأولى أنه ألذ شاي ذاقته برائحته العطرة، وهذا ما قالت لروزالي التي بدا عليها السرور.

قالت تشيلي: «تحمّلك هذا العناء كله من أجلي هو لطف منك لأنني جئت فجأة. ظننت أن السيد بريتان سيرسلني إلى فندق».

فقالت روزالي: «إنك صديقة السيد آش، فمرحباً بك. السيد هاورد يريدك أن تقيمي هنا».

وتساءلت تشيلي عما إذا كان هذا صحيحاً وعما إذا كانت صديقة آش حقاً، فحين افترقا، لم يكن يبدو عليه ما يكفي من المودة. وذكرها هذا بأمر ما، فقالت: «روزالي، عليّ أن أتصل بالسيد آش بسرعة. هل من الممكن أن أتصل به هاتفياً في سانت هيلير؟».

فهزت المرأة رأسها وقالت: «السيد آش؟ لا أدري أين هو الآن يا آنسة».

فقالت تشيلي: «لكن المنطقة ليست كبيرة ولا بد أن بإمكانك العثور عليه في مكان ما».

فقالت المرأة: «هذا ليس سهلاً، لكنني سأسأل كورنيليوس».

وتنهدت تشيلي بصمت وروزالي تعود إلى المنزل.

يبدو أن الأمر سيكون صعباً أم لعل هذه الصعوبة متعمدة؟ هذا غير ممكن. لكن لورنت ألمح إلى أن آش لديه مكانه الخاص في الجزيرة ما يعني عنواناً أو رقم هاتف.

إلا إذا طلب منهم ألاّ يتصلوا به لاسيّما من أجلها. ربما قرر أن الوقت حان لينهي هذه العلاقة الغريبة.

نبذت من ذهنها شعوراً بالوحشة تملكها ثم عادت ترشف الشاي وهي تنظر إلى الزهور وإلى فراشة كبيرة تنتقل بينها. وطارت ببغاء لونها أخضر مذهب ثم توارت في شجرة قريبة.

تنهدت بسرور. ولكن لا يمكنها أن تستمتع فترة طويلة بكل هذا

فإقامتها هنا قصيرة جداً وعليها ألاّ تنسى ذلك.

حدثت نفسها بأنها ستمضي يوماً آخر قبل الرحيل. بعدئذ، ستبدأ بالنسيان. . . والشفاء. وتنهدت مرة أخرى متمنية من كل قلبها أن تصدق ذلك.

www.elromancia.com

٨ - بحيرة الأحلام

في البداية، بدت لها فكرة الخروج لاكتشاف الأماكن المحيطة بالحديقة حسنة، أما الآن وقد أصبحت الشمس خلفها وظهر أمامها جدار من الحشائش فقد غيرت تشيلي رأيها.

كانت بحاجة لأن تشغل نفسها، فاندفعت إلى الأمام مفرقة أوراق النباتات السميكة التي تعترضها، باحثة عن الطريق الذي كانت تسير فيه وفقدته مؤقتاً. وحدثت نفسها بفروغ صبر بأن الدرب أمامها من دون شك في مكان ما. كان أسهل عليها لو بقيت على الشرفة تشرب مزيداً من الشاي وتنهي صحن البسكويت بالقرفة الذي وضعته روزالي أمامها.

لكن الجلوس هناك كان ليترك أفكارها الكئيبة تحملها في طرق أكثر خطورة من الطريق الذي تسير فيه حالياً والذي قادها إلى وسط غابة المطر التي يشرف عليها الجبل.

إن إقامة مسكن في منطقة بركانية كهذه رائع لكنه خطر إذ لا يمكن التنبؤ بما سيحدث.

في أحد الأيام، سمعت أحدهم يقول إن البراكين لا تهمد أبداً بل تنام وهي ترجو أن يكون ذلك الرجل مخطئاً.

وجدت نفسها تأسف لأنها لن تستطيع أن تتعرف إلى السيد هاورد، هذا الرجل الشجاع الذي أقام بيته هنا متحدياً الطبيعة. ولكن عليها أن لا تقدم على أي مغامرة هنا؛ فقد عانت من المتاعب مؤخراً ما يكفيها مدى الحياة. إنها بحاجة الآن للعودة إلى الحياة المتحضرة والبقاء هناك.

فكرت في أن عليها أن تعود. ولمَ لا؟

حسناً، سيفيدها المشي، حتى إنه قد يفتح شهيتها على الطعام. كانت روزالي قد أبلغتها أن العشاء يقدم في الثانية والنصف وهي تبدو امرأة تهتم كثيراً بطعامها واحترام مواعيده.

لكن تشيلي لم تكن تشعر حينذاك بأية شهية على الطعام لأن روزالي حملت لها خبراً غير سار وهو أنها وكورنيليوس ليس لديهما رقم هاتف لآش.

كان أركادي منزلاً رائع الجمال وكذلك الوادي الذي يشرف عليه. لكن أحداً لم يسألها إذا كانت تريد أن تنقطع عن الحضارة. وشعرت بأن طريقتها الوحيدة للخروج من هنا هي أن تسير. لم يكن هناك أقفال، لكنها شعرت وكأنها مسجونة.

وفجأة، استعادت الأمل بعد أن رأت الطريق مرة أخرى، وسمعت صوت ماء متدفق.

سارت بحذر على الجذور السميكة التي جعلت من كل خطوة مغامرة. وأحنت رأسها لتتجنب غصون الأشجار المتدلية ثم انتصبت واقفة فاغرة الفم وهي تحدق بسرور في المشهد البادي أمامها.

لم تخدعها أذناها، فالينبوع الصغير الذي سمعته ينبثق من صخرة رمادية اللون، فيسيل الماء حوالي عشرة أقدام ليشكّل حوضاً طبيعياً.

وأخيراً، هذه هي السباحة التي تلهفت إليها. لا بد أنها آمنة هنا فثمة قارب صغير في الانتظار، وكأنه يدعوها. شعرت بحشرة تلسعها فأخذت تحك جلدها بفروغ صبر وعيناها مسمرتان على السماء والغيوم الخفيفة التي تنعكس على المياه.

يمكنها طبعاً أن تعود إلى البيت وتحضر ثوب السباحة الوحيد الذي أحضرته معها.

ومن ناحية أخرى...

وفجأة، خلعت حذاءها وقميصها وألقت بهما على الصخرة بجانب الزورق كما خلعت سروالها القطني وغاصت في المياه.

شعرت بالماء بارداً على بشرتها الساخنة. غاصت في أعماق بدت من دون نهاية، ثم عادت تصعد إلى السطح وهي تشهق وتضحك لأشعة الشمس. وبعد حين، وجدت نفسها تشعر بالذنب لشعور المتعة الذي تملكها، فعادت تغطس قليلاً ثم أخذت تسبح بشكل عادي.

وانقلبت على ظهرها وأخذت تطفو على وجه الماء وهي تحدق في السماء الزرقاء. ولأول مرة منذ أسابيع شعرت بالاطمئنان والسلام وخطر لها أنه إذا أصبح لديها قارب خاص فستسميه «حورية البحر» في ذكرى هذا اليوم. بدا سخيفاً وهي في وضعها هذا، أن تضع أي نوع من الخطط، لكن عليها أن تتفاءل وتتخيل أنها ستمتلك يوماً قارباً...

وأخذت تحدث نفسها بأن كل واحد منا بحاجة لهدف يصبو إليه.

سبحت ببطء نحو الينبوع ثم صعدت على الصخرة الملساء حيث وقفت تحت الشلال ورفعت وجهها إلى المياه المتدفقة على جسدها.

كانت مأخوذة تماماً بما تفعله ومع ذلك دفعتها غريزتها إلى الالتفات إلى الخلف.

كان آش واقفاً في الناحية الأخرى من البحيرة ينظر إليها. بدا عفوياً في وقفته وملابسها مكومة عند قدميه لا يمكن الوصول إليها. بقيت لحظات جامدة فيما ذهنها يعمل بشكل محموم

ولم تجد أمامها سوى حلّ واحد فقفزت إلى البحيرة، متسترة بالماء، بحيث لم يعد يبدو منها سوى رأسها وقالت له بغيظ: «أي جهنم جعلتك تأتي إلى هنا؟».

فقال: «لقد دعوت نفسي على الغداء، فيخنة السمك التي تطهيها روزالي مشهورة، ولا يمكن مقاومتها... كأمور كثيرة غيرها في أركادي».

توتر فمها: «أنا أعني لماذا أنت هنا الآن وفي هذه اللحظة بالذات».

- لأن هذا هو مكاني المفضل في المنطقة. إنه جميل أليس كذلك؟

وابتسم لها فأجابت: «إنه رائع لكنه أصبح بارداً الآن. لهذا، أريد أن أخرج من الماء وأرتدي ثيابي إذا لم يكن لديك مانع».

فقال: «ليس لدي مانع ولكن الصعود صعب إذا لم تكوني معتادة عليه. من الأفضل أن تمسكي بيدي».

فشهقت قائلة: «اذهب إلى جهنم».

- هل لديك خيار آخر؟

فقالت محاولة أن تمنع أسنانها من أن تصطك: «نعم، يمكنني أن أبقى هنا حتى تتحلى ببعض الذوق فتذهب».

- ألا تظنين أن الوقت فات على الاحتشام؟.

وسكت قليلاً ثم راح يخلع قميصه ببطء مضيفاً: «يمكنني أن أنزل إلى الماء وأسبح معك فالجو حار جداً اليوم، وبعض... الإثارة لن تضير».

احتبست أنفاسها في حلقها وقالت وهي تصرف بأسنانها: «إياك أن تجرؤ! إياك...».

فضحك: «أتعنين أن البركة ليست فسيحة بما يكفي لنا نحن الاثنين؟ حسناً قد تكونين على صواب، لكنك أمضيت فيها مدة طويلة».

ومدّ يده إليها قائلاً بتهكّم: «هيا خذي يدي قبل أن تمرضي. سأغمض عيني إذا كنت تفضلين».

فاقتربت منه سابحة وقالت: «هل لك أن تذهب من فضلك؟».

فقال: «لا. لكنني أعدك بأن أدير لك ظهري».

افترضت أن بإمكانها أن تبقى حيث هي بكل وقاحة لترى ما سيفعله لكنها لم تكن تشعر بمثل هذه الوقاحة.

كانت تشعر بالبرد والخجل والحرج البالغ حتى كادت دموعها تنهمر، كما أن آش قد لا ينخدع بتصرّفها.

www.elromancia.com

عضت شفتها بقوة ثم سبحت إلى حيث وقف ينتظر مغمض العينين.

كانت أصابعه دافئة وقوية وهو يمسك بأصابعها وشعرت للمسته هذه برعشة من السرور غير مرغوب فيها.

قالت متوترة: «شكراً والآن أدر ظهرك من فضلك».

فقال وكأنه يضحك: «كما تشائين، هل لي أن أقول إنك تبدين أجمل عندما لا تكونين زرقاء اللون من البرد؟».

فقالت وهي تختطف ملابسها: «هل هذا صحيح؟ حسناً أنت تبقى نذلاً مهما تغير لونك».

- ما هذا يا آنسة غرير؟ كم أنت متوترة.

لم تجب وهي تحاول أن ترتدي ملابسها على جسدها المبلل بالماء بصعوبة.

فقال ببطء: «أنت خجولة وهذه ميزة أخرى تضاف إلى قائمة طويلة من الميزات التي أظنها فاتنك».

- احتفظ بملاحظاتك لنفسك. إن حياتي هي شأني الخاص.

فقال: «يبدو أنك نسيت ما قلته من قبل وهو انني انقذت حياتك ما يجعلها تخصني الآن».

- أنا لا أؤمن بهذه الاعتبارات السخيفة وأنا ملك لذاتي فقط.

فقال متأملاً: «فقط؟ يا لها من كلمة باردة كالثلج».

قالت ببرودة: «ما أغرب تفكيرك هذا، بالنسبة إليّ المسألة مسألة استقلالية... والآن لقد انتهيت من ارتداء ثيابي».

استدار إليها يتفحصها من دون خجل وقال بدقة: «هذا ما أراه. لكن الذاكرة أمر رائع».

فقالت: «لكن رأيي مخالف. أنا مستعدة لدفع أي شيء في سبيل أن أمحو من ذاكرتي أحداث الأسابيع الماضية لاسيّما الساعات الثماني والأربعين الأخيرة».

- لسوء الحظ نحن عالقان يا ميشيل ولا مجال للخلاص مما حصل. فلماذا لا نستغل الوقت المتبقي لنا على أفضل وجه؟ روزالي وكورنيليوس يعتقدان أننا صديقان ومن الأفضل أن يبقيا على اعتقادهما هذا.

وعاد يمسك بأغصان الشجرة لكي تتمكن من المرور وهو يسأل بأدب: «ما رأيك بأركادي؟».

فأجابت مترددة: «إنه... محير. يبدو أن السيد هاورد هذا سلّمك إدارة منزله كما سلمك مركبه. يبدو أن علاقتكما حميمة».

فهز كتفيه: «إننا نعرف بعضنا منذ مدة طويلة».

وجولي؟ فكرت في أن تسأله عنها لكنها لم تجرؤ كما أنها تعرف الجواب.

وغيّرت الموضوع بسرعة قائلة: «جواز سفري، نسيت أن تعيده إليّ عندما نزلنا من المركب فهل أحضرته معك؟».

- كلا. لا بد أنه ما زال على المركب ولكن لا تقلقي إنه في مكان آمن للغاية.

فقالت ببرودة: «أدرك هذا تماماً».

سارت تشيلي أمامه رافعة رأسها بكبرياء وعندما وصلا أخيراً إلى محيط المنزل استدارت تواجهه: «أخبرني. لقد علمنا ما تفعله أنت هنا فقد جئت لتناول بخنة السمك التي تطهيها روزالي. ولكن ما لا أفهمه هو لِمَ أنا هنا وحيدة في البراري بدلاً من أن أكون في سانت هيلير؟».

فقال بعد لحظة: «أنا آسف لشعورك بالوحدة والهجران. أردتك أن تحضري إلى هنا لأن المكان هادىء وجميل».

فقالت: «نعم إنه كذلك لكنه أيضاً شديد العزلة».

- إن هذا جزء من سحره. فأنا آتي إلى هنا عندما أكون بحاجة إلى الراحة أو التفكير، أو استعادة توازني النفسي وأرجو أن يكون هذا شعورك أنت أيضاً. اعتقدت ذلك حين أدركت أنك وجدت البحيرة،

www.elromancia.com

فهي برأيي أجمل مكان في هذه الجزيرة. لكن من الآن فصاعداً، سيزداد سحرها.

أحنت رأسها متجنبة نظراته وقد تسارعت دقات قلبها، وقالت: «لا تفعل هذا أرجوك...».

فسألها بهدوء: «لمَ لا؟ هل لأنني أخيراً حققت أحلامي؟ ولأنك بهذا الجمال وهذا العجز... اللذين جعلاني مستعداً لأن أجتاز تلك المياه لأصل إليك لو أشرت إلي بذلك؟ الآن صورتك ستبقى في أعماقي إلى الأبد؟ هل لهذا تريدينني أن أبقى صامتاً؟».

احمر وجهها وقالت بصوت مخنوق: «عليك ألاّ تقول لي هذا الكلام. ليس لك الحق».

فقال بصوت خشن غريب: «كلامك صحيح تماماً، ليس لدي الحق أبداً. ولكن لا شيء يمنعني من أن أتمنى. تذكري هذا فقط».

أخذت شيلي تنظر إليه وهو يبتعد. كل لحظة تمضيها برفقة آش تمثل خطراً حقيقياً وعليها أن تنتبه إلى ذلك.

والتوت شفتاها بابتسامة صغيرة حزينة وهمست وهي تعود إلى المنزل: ولكن لا شيء يمكن أن يمنعني من أن أتمنى أنا أيضاً.

* * *

برغم حرارة الجو، شعرت شيلي بالبرد عندما وصلت إلى غرفتها. خلعت ملابسها الرطبة وجففت جسدها، وكانت تتهيأ لارتداء ثيابها عندما سمعت نقراً على باب غرفتها.

أجفلت لحظة متسائلة عما إذا كان الطارق آش. وتملكها مزيج من الرجاء والخوف. إذا بقيت هادئة فقد يفترض القادم أنها غير موجودة ويذهب. لكن صوت روزالي ما لبث أن ارتفع: «لدي شيء لك يا آنسة».

تنهدت شيلي وفتحت الباب لترى روزالي تحمل علبة عريضة مسطحة وتقول بابتسامة عريضة: «هذه لك يا آنسة. قال آش إنك تركتها

خلفك».

قطبت شيلي جبينها بارتباك: «أظن أن ثمة خطأ».

هزت روزالي رأسها: «هذه لك يا آنسة، هكذا قال آش».

فقالت شيلي بشيء من العبوس: «أظن أن عليّ أن أتحدث إلى السيد آش».

ردّت روزالي ببشاشة: «ليس هنا. اضطر إلى الخروج لكنه سيعود لتناول العشاء فهو لن يفوّت ما أطهوه».

ووضعت العلبة بين يدي شيلي ثم ذهبت وهي تدندن. حملت شيلي العلبة إلى السرير وكأنها تتوقع أن يتفجر.

كل ما تملكه كان معها هنا، وهو يعرف ذلك فما الذي يفعله؟

رفعت غطاء العلبة فانحبست أنفاسها وهي ترى ما بداخله. رفعت القماش الرمادي الحريري وأمسكت به أمامها. وعندما تحركت أمام المرآة تغير لون القماش من الرمادي إلى الفضي.

هذا اللون الغامض أبرز جمال بشرتها القمحية وسواد شعرها وهو بالضبط اللون الذي كانت لتختاره لنفسها.

همس لها صوت في أعماقها بأن تجربه ولكن عقلها حثّها على أن تعيده إلى العلبة، من دون أن تنظر إليه مرة أخرى. كانت تعلم أنها ستجده ملائماً فلا ترغب في أن تخلعه. وتنهدت ثم طوت الثوب رغماً عنها وعندما انتهت لاحظت ورقة صغيرة سقطت على الأرض فالتقطتها وقرأت الكلمات التي كانت تقول: (تشيلي هذا ليس أمراً مهماً ولهذا أرجوك ألاّ تقذفي به في وجهي. يمكننا دوماً أن ندّعي أنه عيد ميلادك).

جلست على حافة السرير وأخذت تقرأ الورقة مرة بعد مرة إلى أن غامت الكلمات أمام ناظريها. وتساءلت بمرارة من أين اكتسب آش هذه القدرة على جعلها تغيّر رأيها؟

إن رفضها أن ترتدي هديته سيجعلها تبدو عديمة الذوق وبالتالي

www.elromancia.com

ستحدث ضجة سخيفة من موضوع تافه لكن الأمر لم يكن تافهاً بل في غاية الأهمية.

خطر في بالها أنها أول هدية تتلقاها من رجل بما في ذلك أبوها الذي كانت تتلقى هداياه دوماً عن طريق المربية في صغرها والسكرتيرة لاحقاً، ما جعل من هذه الهدية هدية غير عادية. تنهدت وهي تلامس القماش الناعم.

كيف يمكن لرجل تكاد لا تعرفه أن يتصرف بشكل صائب هكذا؟ وتملكها اليأس. آش ما زال غريباً بالنسبة إليها وعليها ألاّ تنسى ذلك.

لعلها متحفظة. لكنها لا تعرف شيئاً عن أسرته... هذا إذا كان لديه أسرة، أو عن خلفيته. ربما من الأفضل أن تبقى هذه مجهولة لاسيّما أنه غير مستعد للإدلاء بأيّ معلومات.

لقد تقاطعت حياتهما... وهذا كل ما في الأمر. فلماذا يبدو هذا الاتصال القصير بينهما مهماً؟ ولماذا تشعر بأن طول المدة لا يعني شيئاً في حدّ ذاته وأن حياتها كلها وجدت أصلاً لكي تقابل آش، وأن من غير المهم أن يقاس تعارفهما بالساعات أو بالسنوات. وخطر لها أنها حالما رأته أدركت بعجز مفاجىء أنه الرجل الذي كانت تنتظره. ولكن لماذا لم ينذرها القدر بأن النهاية لن تكون سعيدة؟ وأنه على علاقة بفتاة شقراء هي جولي التي لم ترتكب على الأرجح أخطاء ينبغي تصحيحها؟

لماذا لم تخبرني غريزتي بأنه سيؤثر في حياتي التي ستصبح ملكه، من دون أن أصبح أنا نفسي كذلك، لأن هذا مستحيل كما أوضح لي مرة؟

لعله انجذب إليها لكنه ملتزم بامرأة أخرى وهو لن يدع صدفة تفسد علاقة جيدة وحقيقية فيخسر فرصة ترك الماضي خلفه وبدء حياة مستقرة جديدة.

كيف أمكنني أن أنظر إليه تلك الليلة في نادي ماماريتا من دون أن أدرك هذا؟ من دون أن أرى أنه فاكهة محرمة؟ وأنه مستعد دوماً للخروج

من منطقة الخطر؟

حينذاك كنت سأوفر على نفسي مستقبلاً أعيشه محطمة القلب.

وهمست بحزن: «متعة الحب ما هي إلا لحظة».

وفكرت بغضب. لن أطالبه بأكثر مما هو مستعد لأن يمنحه. لكني سأحصل على شيء ما... على بعض الذكريات الغالية أحملها معي إلى المستقبل الخالي، أحملها مع هذا الثوب الجميل الذي لا يمكن أن أرتديه لكني سأحتفظ به إلى الأبد.

وأعادت غطاء العلبة برفق ثم مزّقت الورقة وخرجت إلى الشرفة حيث جلست على إحدى الأرائك ترقب غروب الشمس وتفكر.

* * *

بقيت في غرفتها حتى آخر لحظة ممكنة. واستغربت أنّ الثوب الأسود الذي أحضرته من منزل ماماريتا لم يعد يلتصق بجسمها، بل بدا هادئاً ومثيراً بجانب بشرتها التي صبغتها أشعة الشمس.

ولكن هل هذا كافٍ؟ هل ستكون هي كافية؟ وفكرت في أن هذه هي فرصتها لكي تجد الرد عن تساؤلاتها.

وجدت آش في غرفة الجلوس واقفاً بجانب الباب المؤدي إلى الشرفة يحدّق في الظلام وفي يده كأس شراب.

عندما دخلت تشيلي إلى الغرفة مترددة التفت إليها رافعاً حاجبيه وهو يتأمل كتفيها العاريتين وساقيها الطويلتين اللتين اكتسبتا سمرة جميلة. وساد صمت طويل قبل أن يقول برقة وعلى فمه ابتسامة خفيفة: «إنه ليس عيد ميلادك لكنه ربما عيدي أنا».

هزت كتفيها قائلة: «قررت أن أرتدي ملابسي العادية؟».

- أنت شجاعة نظراً للذكريات التي سيثيرها ثوبك هذا.

رفعت وجهها تواجه نظراته متحدية: «لم تكن كلها سيئة... لكن الثوب الذي أرسلته لي رائع بالنسبة إلى شخص يعتاش من قيادة مراكب

الآخرين. يبدو أنك تعرف الكثير عن ملابس النساء».

فقال: «ربما هناك تقصير بسيط مني لكنني سأتجاوزه».

- هذه حكمة بالغة منك وأنا واثقة من أنك ستجد امرأة أخرى محظوظة تستفيد من ذوقك الجميل.

فتوتر فمه وقال: «لقد اشتريته لك. فارتداء ملابس امرأة أخرى طوال الوقت لا يسرّ الفؤاد كما أريدك أن تلبسي ما هو ملك لك».

فكرت بألم في أنها هي أيضاً تريد ذلك... وتتلهف إلى ذلك. وقالت بصوت مرتفع: «حسناً... هذه الفتاة رقيقة منك».

وتساءلت في سرها عما إذا كان كلامه حقيقة أم أنه لا يحب أن يراها في ملابس الفتاة التي يحبها؟

وهذه الفكرة الأخيرة اعتصرت قلبها.

- هذا شراب من ابتكار كورنيليوس. إنه يستحق التجربة.

وسكب سائلاً في كأس وضع فيها قطعة ثلج وبعض أوراق النعناع، وقطعاً من الليمون.

تذوقته تشيلي قائلة: «ماذا يحتوي؟».

- ليس لدي فكرة. «كورني» يعدّه بنفسه وعلى انفراد.

فقالت باسمة: ««كورني» يبدو لي أكثر وقاراً من أن يدلع».

فقال: «ربما. لكنه متسامح جداً معي».

أخذت رشفة أخرى وسألته وهي تنظر إليه من تحت أهدابها: «أتساءل أي نوع من الخطايا يغفر لك؟».

فقال: «من الأفضل ألاّ تعلمي، رغم أنك قد تصابين بخيبة أمل».

- تقول إن كورنيليوس لا يشك في ولائه؟ إنك تحيرني.

فقال: «لا أظنني قلت كلاماً كهذا! دعك من هذه الظنون. فهي تهاجم خلايا المخ وتدمّر الأفكار الطبيعية والسلوك. دعيني أنقذك من نفسك».

وأخذ الكأس من يدها ووضعها على الطاولة وتابع: «أظن أن الوقت حان الآن لتناول العشاء».

وقفت وقالت له بصوت منخفض: «لا أريد أن تنقذني. هل فكرت في ذلك؟».

وقف آش ونظر إليها: «أمور كثيرة تخطر في بالي. وبعد أن نأكل، علينا أن نتحدث بشكل جاد. والآن هيا بنا قبل أن تستاء روزالي».

تبعته عبر الردهة إلى غرفة للطعام منخفضة السقف يزيّن مائدتها البلور والفضيات.

بدأ الطعام بحساء الأفوكاتو الذي تبعه بخنة سمك كثيرة التوابل وبطاطا حلوة وخضار طازجة. وفي نهاية الوجبة قدمت ثمار المانغو مع حلوى رائعة لها طعم جوز الهند.

أبقى آش الحديث سطحياً، فتحدّث عن تاريخ الجزيرة وخططها للمستقبل ومجالات السياحة ما جعلها ترتاح وتتجاوب معه بالرغم منها.

على أي حال، كان يُفترض به أن يتجنب المواضيع الخاصة بسبب كورنيليوس الذي كان يخدمهما على المائدة.

وعندما انتهت وجبة الطعام وقدمت القهوة، سمعت كورنيليوس يتمنى لهما ليلة سعيدة. فقال آش له باسماً: «شكراً يا كورني وأخبر روزالي أن بختها لا تزال رائعة ولا منافس لها».

أومأ كورنيليوس ثم خرج.

فقال آش: «والآن ثمة أمور علينا أن نناقشها».

ومد يده إلى جيبه الخلفي وأخرج جواز سفرها متابعاً: «هذا لك».

فوجئت بذلك وقالت: «شكراً. هل ذهبت إلى سانت هيلير قبل العشاء لتحضره؟».

فهز كتفيه: «بدا موضوعاً هاماً وقد حان الوقت لإنهائه».

فقالت بابتسامة متألقة: «لكي تثبت هويتي للقنصل يوم الإثنين».

www.elromancia.com

- إذا شئت أن تنتظري حتى ذلك الحين.

كان متكئاً إلى الخلف في كرسيه، فلم تستطع أن ترى ما ارتسم على وجهه من تعبير.

- لا أفهم. ما هي خياراتي الأخرى؟

وشعرت بقلبها يخفق من الإثارة وهي تتساءل عما سيقوله.

- إذا أقرضتك بعض المال فيمكنك أن تغادري هذا المكان غداً. يمكنك أن تستقلي طائرة محلية إلى بربادوس أو غرينادا ومن هناك يمكنك أن تسافري إلى أي مكان تريدينه.

وساد الصمت. كانت يداها ترتجفان فشبكتهما بشدة في حجرها تحت غطاء المائدة.

وقالت: «ولماذا أفعل هذا؟».

- لأنك، كما سبق وقلت، بحاجة لأن تتابعي حياتك. وهذا يساعدك.

فقالت ببطء: «هذا لطف منك لكني أظن أنك فعلت ما يكفي من أجلي. أنا مواطنة إنكليزية في ورطة، والقنصل مرغم على أن يساعدني».

فسألها ساخراً: «ماذا ستخبرينه؟ هل ستطلعينه على قصة رامون ونادي ماماريتا؟ لا أظنه سيتأثر بقصتك كثيراً. فكري في هذا وسأعود في الصباح لآخذ الجواب».

- ألن تبقى هنا الليلة؟

كان السؤال من السرعة واللهفة بحيث احمر له وجهها.

ساد صمت قصير ثم قال: «لقد قررت عكس ذلك».

فقالت وهي تنهض واقفة: «فهمت. لا تدعني أؤخرك. أرجوك».

لحق بها قائلاً: «أكملي شرابك».

فقالت: «اذهب قبل أن أقول وأفعل ما أندم عليه».

فتنهد: «تشيلي، لقد تناولت هذه التفاصيل كلها بطريقة خاطئة

فخلطت الأمور».

- على العكس، كل شيء واضح كالبلور. أنت أيضاً بحاجة لأن تتابع حياتك الخاصة، ولا يمكنك ذلك فيما أنت تشعر أنك مسؤول عني. لذا يفترض بي أن أبتعد عن طريقك وأن أقبل ما عرضته عليّ.

- أنا لا أحاول أن أتخلص منك. ليس بالطريقة التي تظنينها على الأقل.

فسألته بصوت ممزق: «وهل هناك أكثر من طريقة؟ هذا لا يعني أن الأمر مهم، وليس عليّ أن أسهر لاتخاذ قراري... سأقبل بما تقدمه لي وأغادر هذا المكان غداً... وسأرد لك كل ما دفعته مهما طال الزمن».

فقال من دون أن يتأثر بحماستها: «في هذه الحالة فلنشرب نخب المستقبل».

رفعت كأسها وقالت: «نخب المستقبل».

قالتها متحدية لكنها كانت تتألم في أعماقها. بعد دقائق قليلة سيرحل إلى سانت هيلير وغداً قد ترمقه بآخر نظرة من نافذة طائرة ما.

لماذا يجعلها تغادر بهذا الشكل؟ أتراه علم فجأة أن حبيبته ستصل ولا يريد أن يشرح لها سبب وجودها في بيتها؟ إذا كان الأمر كذلك، فعليها أن تسرع بالرحيل.

قالت بصوت مرتفع: «هل من الحكمة أن تغادر في وقت متأخر، لاسيّما وأن الطرقات غير آمنة؟».

فأجاب: «كورني سيوصلني إذا ما طلبت منه ذلك».

فقالت: «نعم طبعاً. ما أغباني! أخبرني... ما هذه الموسيقى، فأنا لا أعرفها».

فأجاب: «إنها موسيقى «بي جين» والفضل لروزالي التي ولدت في جزيرة الماريتنيك. إنها تغني أحياناً أغاني الجزيرة كما فعلت الليلة».

فقالت: «كانت الأغنية رائعة».

www.elromancia.com

وراحت تتحرك ببطء في أنحاء الغرفة وهي تدندن. أخذت ترقص ساعة لنفسها بالانسياق من دون تحفظ.

لم تكن بحاجة للنظر من فوق كتفها لتدرك أن آش يراقبها كالمسحور. فكرت، وقلبها يخفق، في أن هذه الليلة لم تنته بعد.

وصل صوته إليها بلطف ولكن بلهفة: «تشيلي... كفّي عما تفعلينه».

- لماذا؟

واستدارت تواجهه وعيناها الخضراوان مثقلتان فيما تابعت: «أنت تريد هذه الرقصة... أردتني أن أرقص لك. فلماذا لا أفعل الآن؟».

فقال بشيء من العبوس: «لأسباب كثيرة».

وسار إليها يمسك بيدها يجذبها إليه حتى أصبحت بين ذراعيه لكنه لم يضمها إليه، بل أمسك بها بحزم وأخذ يتحرك معها بانسجام تام وهو يقول بهدوء: «ارقصي معي يا تشيلي فهذه الطريقة أكثر أماناً».

سألته بصوت أجش: «ولماذا تبحث دوماً عن الأمان؟ إنك تقترب مني ثم تبتعد. فلماذا هذا؟».

فأجاب بخشونة: «لأنني أتذكر دوماً وفي الوقت المناسب أنه لا يحق لي أن أكون قريباً منك بهذا الشكل فثمة أمور تتعلق... بكل هذا الوضع... عليك أن تعرفيها. أمور علينا أن نتحدث عنها فقد تغير كل شيء».

فقالت بصوت مرتجف: «كلا. ليس عليك أن تخبرني شيئاً. هذا ليس ضرورياً فقد سبق وعلمت ما تريد أن تقوله».

- علمت؟ هل أخبرك لورنت؟ هل قال شيئاً ما؟

فقالت بحنية كتفيها: «لا. كان متكتماً لكنني تكهنت الأمر. أنا... لست غبية».

- يا إلهي! عليك أن تدعيني أشرح الأمر.

فقالت بلهجة يائسة: «كلا، أنا أعلم وهذا يكفي. لا أريد أن أسمع شيئاً يا آش. جنبني ذلك من فضلك».

فقال متردداً: «إذا كان هذا ما تريدينه فليكن. لم أكن أنوي شيئاً من هذا يا تشيلي، صدقيني. ما كان ينبغي أن أسمح لذلك بأن يحدث».

نظرت إليه بعينين متوسلتين: «ثمة ما أريدك أن تعرفه أنت أيضاً، وهو أنني لا أهتم».

فتنهد: «ربما عليك أن تهتمي».

فقالت: «حتى لو أقسمت أن هذا لن يشكل أي فرق وأنني سأغادر المكان هنا حسب الاتفاق وأعدك بألاّ أزعجك؟ مهما يحدث بيننا سيبقى سراً ولن أضغط عليك من أي ناحية، أو أطلب منك أي شيء لا يمكنك أن تمنحه. عليك أن تصدق ذلك. لن يتألم أحد بسبب هذا الأمر».

فابتسم بمرارة: «أتظنين ذلك؟ أتمنى لو كنت بهذه الثقة».

فقالت بصوت مرتجف: «إلا إذا كنت لا تريدني. فهل هذه هي الحقيقة يا آش؟ هل هي بهذه البساطة؟».

- أنا أريدك وأردتك منذ اللحظة التي رأيتك فيها، لم أستطع أن أنام ساعة على ذلك المركب اللعين وكنت أكافح طوال الوقت لأبعد يدي عنك.

فهمست: «إذاً لا تسافر الليلة. إبق هنا. إبق معي... أرجوك».

فقال برقة: «لا يمكن حتى للجياد البرية أن تجرّني بعيداً عنك».

وحملها بين ذراعيه وخرج بها إلى الردهة المظلمة ومن ثم صعد بها السلم.

٩ - نهاية الخداع

في غرفة نومها، كان المصباح بجانب سريرها مضاءً وغطاء السرير مطوياً. أوقف آش تشيلي على قدميها برفق وأحاط وجهها بيديه ناظراً في أعماق عينيها وفي ابتسامته شيء من الاضطراب ثم قال لها بهدوء: «أنت ترتجفين، ما الذي يخيفك؟».

كانت تتمنى لو أن شعرها ليس مقصوصاً بهذا الشكل ولو أنها لا تشعر بمثل هذا الارتباك وعدم الخبرة. وتمنت أيضاً لو أنها جميلة جداً، بشعر أشقر وأسنان مستوية تماماً.

أجابته: «أخاف من نفسي، أخاف من أن أخيب أملك».

ضحك وقربها منه قائلاً: «وكيف ستخيبين أملي؟».

قالت بصوت ضعيف: «قال لي... قال إنني عديمة النفع ولست امرأة حقيقية».

- يا إلهي، لكن لا بد أنك أدركت أن كلامه غير صحيح.

هزت رأسها: «كان رامون حبي الأول. وهو الوحيد الذي يمكنني أن أحكم على نفسي على أساس رأيه».

ساد صمت قال بعده بهدوء: «أنا آسف يا تشيلي. لم أكن أعلم. ظننت... فليذهب ظني إلى جهنم».

أغمضت عينيها تتشمم رائحته الدافئة ثم قالت وهي تحاول أن تبتسم: «قلت إنك كنت تحلم بي وقد تحقق حلمك، ربما علينا أن نقف عند هذا الحدّ ما دمت راحلة».

فقال برقة فائقة: «أولاً، إياك أن تخلطي بيني وبين رامون مرة أخرى، ثانياً، وهذا هو الأهم، حلمي تغير قليلاً منذ عصر هذا اليوم».

كانت لا تزال ترتجف إنما من الشوق الذي لن تحتاج أن تخفيه. شعرت بالحرارة تسري في عروقها فوضعت ذراعيها حول عنقه وجذبته إليها.

أمسك بمعصميها وقال وقد بدت عيناه الزرقاوان جادتين فجأة: «تشيلي... أظن أن علينا أن ننسى الماضي. منذ شهر... منذ شهرين لم أكن أعلم حتى بوجودك في هذه الحياة».

- لكنك تعرف الآن، أليس كذلك؟

- نعم.

أدركت أنها متلهفة لأن تخبره بأنها تحبه، لكن هذا مستحيل ويتعارض مع القواعد التي فرضتها على نفسها. كما أن كرامتها تفرض عليها أن تبقى صامتة، فقريباً ستتركه إلى الأبد، وعليها أن تتمكن من القيام بذلك ورأسها مرفوع دون أن تشعر بحرج يعكر عليها حياتها.

سألها: «هل من خطب ما؟».

ابتلعت بريقها: «لماذا تسأل؟».

فأجاب ببطء: «منذ لحظة كنت مرتاحة تماماً وبعد لحظة تغيّرت».

فقالت: «أخشى أن أخذلك فأنا... أنا... إنها المرة الأولى... و...».

قاطعها قائلاً: «لكن رامون؟ والصحف؟».

فأجابت: «لم يمسني. والصحف تتغذى على الشائعات».

- تشيلي لا أريد أن نقدم على ما قد تندمين عليه. اسمعي، ثمة تعقيدات كثيرة. ثمة أمور لا تعرفينها. أنا...

وابتعد عنها ثم تراجع نحو الباب. لم تشأ أن ترجوه وتتوسل إليه فقد تنازلت عن كرامتها بما فيه الكفاية. هل تعترف له بأنها ودّت لو تحمل

www.elromancia.com

معها ذكرى منه؟ هل تخبره أنها لم تشعر يوماً بالحب كما فعلت معه؟ هل تهين نفسها أكثر... لا، فلم يبقَ لها سوى كرامتها.

وبعد أن خرج، استلقت في فراشها من دون نور أو أمل. وشعرت بالخوف والوحدة كما لم تفعل في حياتها. وفكرت بحزن في أن ألم الحب ابتدأ.

* * *

- آنسة غرير، هذه قهوة لك.

فتحت تشيلي عينيها رغماً عنها لتجد الغرفة تسبح في أشعة الشمس وروزالي تقف بجانب سريرها حاملة في يدها كوب القهوة.

كانت وحيدة من دون أنيس. لقد رحل آش وتركها وحيدة. لكن ما الذي يدهشها؟ في الواقع، إذا كان على علاقة بابنة صاحب المنزل فمن سوء السلوك أن يخونها مع فتاة أخرى في منزلها.

انتصبت جالسة ببطء وهي تقول: «شكراً يا روزالي».

- اتصل السيد آش ليعلمك أنه حجز لك مقعداً على طائرة الظهر إلى غرينادا.

كادت تشيلي تسكب قهوتها على السرير وهي تسأل غير مصدقة: «متى اتصل؟».

- منذ نصف ساعة يا آنسة، كما قال إنه سيرسل لك سيارة في الساعة الحادية عشرة.

فسألت وقد جفّ فمها: «فهمت، هل من رسالة أخرى؟».

فأجابت روزالي: «كلا يا آنسة، هل أعد لك الحمام؟».

- لا، شكراً. سأفعل هذا بنفسي.

وعندما أصبحت وحدها أخذت تفكر بكآبة في أنه يريد التخلص منها سريعاً. لكن، ما الذي كانت تتوقعه؟ لقد أعجب بها لكنه لم يشأ التورط معها. حسناً، سترحل اليوم وقد فات أوان الندم. تمطت، شاعرة بألم في

جسدها.

لقد علّمها آش أن تكون امرأة لكنها تعلمت أيضاً أن تشعر بقلب امرأة، ولن تعود حرة أبداً. لم ترغب في القهوة، لكنها كانت بحاجة إلى بعض النشاط لكي تتمكن من التحرك. على أي حال، عليها أن تحزم أمتعتها، فقد حان الوقت لكي تتظاهر بأنها لم تكن هنا أبداً.

وكانت روزالي قد غسلت لها ثوبها الكتاني وكوته، لكنها لن ترتديه أو ترتدي أي ثوب آخر من ملابس جولي، فهذه الفكرة لا تطاق.

ستستعمل الملابس القليلة التي أحضرتها معها ثم تشتري بعض الملابس الداخلية في غرينادا قبل أن تتوجه إلى الوطن تاركة كل شيء خلفها.

ما عدا الثوب الذي اشتراه آش لها، فستأخذه معها... تذكاراً يذكرها بالهوّة التي تفصل بين الرغبة والحب وتحذيراً من أن تسمح لنفسها بأن تخلط بينهما مرة أخرى.

لن أحب مرة أخرى، حتى لو عنى ذلك أن أمضي بقية حياتي وحدي، فليكن! لقد عشت وحدي من قبل.

كلمات شجاعة، لكنها تعلم بأنّ الحياة لن تكون بهذه السهولة. فهي لن تأخذ معها الثوب وحده بل سيرافقها آش أيضاً وصوته ورائحة رجولته.

إنها ذكريات لا يمكن تجنبها وعليها أن تتعلم كيف تعيش معها.

اغتسلت وارتدت ثيابها ثم جلست تحزم أمتعتها.

فكرت مقطبة بأن أمتعتها قليلة ثم أدركت السبب فالثوب الأسود الذي ارتدته الليلة الماضية كان مفقوداً.

أخذت تبحث في الخزانة لكنها لم تجد له أثراً. وعضت شفتها فجأة. لعل روزالي أخذته الليلة الماضية للغسيل. ماذا ستفعل الآن؟

لم يبق لها سوى جواز السفر الذي ما زال على الطاولة في غرفة الجلوس. حملت حقيبتها وألقت نظرة أخيرة على الغرفة ثم نزلت السلم.

قابلتها روزالي في الردهة وهي تقول: «السيد آش هنا».

تسارعت خفقات قلب تشيلي بشكل مؤلم بينما أردفت المرأة: «إنه في الشرفة. إنني أحضّر له البيض، أتريدين بعضاً منه أنت أيضاً؟».

- كلا، شكراً. لست جائعة.

نظرت إليها روزالي مقيّمة: «أنت نحيلة جداً يا آنسة، ويجب أن تأكلي أكثر».

لو لم يكن عليها أن تستعيد جواز سفرها لصعدت السلم عائدة إلى غرفتها.

- صباح الخير.

انهارت آمالها بأن تتجنبه فرفعت وجهها محاولة أن تتجاهل ارتعاشها وقالت تتصنع العفوية: «مرحباً! وصلتني رسالتك. لم أكن أتوقع أن أراك».

فرد عليها قائلاً: «لم أكن أتوقع التواجد هنا، لكن الخطة تغيرت. وجدت طائرة تقلع بعد قليل. إذا غادرنا بعد الفطور مباشرة فيمكنك أن تستقليها».

حملت جواز سفرها ودسته في حقيبة يدها بيدين مرتجفتين وقالت بابتسامة مرغمة: «فهمت. إنك مستعجل حقاً للتخلص مني، أليس كذلك؟».

فتابع يقول وكأنها لم تتكلم: «لقد حجزت لك مكاناً في نادي أوشن سايد. وسألحق بك حالما أتمكن من ذلك. فلدي أعمال عليّ أن أنهيها أولاً».

فكررت ببطء: «أعمال؟ هل بهذا تصف إيذاء الناس والعبث بمشاعرهم؟».

تخيلت صورة جولي بابتسامتها المشرقة فاغرورقت عيناها بالدموع.

رفع حاجبيه متسائلاً: «لم أدرك وجود الكثير من المشاعر في هذا

الأمر. أنا مستعد لتصحيح كلامي. على أيّ حال، أظن أنه من الأفضل أن تبتعدي من هنا بينما أقوم أنا بالعمل. عليك فقط أن تثقي بي».

- آش، لا يمكننا أن نفعل شيئاً. فالموضوع لم يتغيّر والظروف هي نفسها.

هزّ رأسه: «أتظنين هذا؟ أنت مخطئة يا تشيلي. بعد أن تركتك الليلة الماضية، تأكدت مما عرفته دوماً وهو أننا خلقنا لبعضنا البعض. حبيبتي، لن أدعك تذهبين. لا أستطيع. وسأقوم بكل ما يمكنني لكي نتمكن من العيش مع بعضنا البعض، وأظنك تريدين هذا أنت أيضاً. فهل أنا مخطىء؟».

وأمسك بيديها الاثنتين، فقالت بتعاسة: «كلا فأنا أريد هذا، أريده كثيراً، لكنني أعلم أنه لا يمكنك أن تبني سعادة على حطام الآخرين».

حدّق إليها قائلاً: «تشيلي، لكن هذا لن يحدث معنا».

فنظرت إلى الأرض قائلة: «أظن أن هذا ما يحدث».

وقفزت عندما قرع جرس الباب الأمامي وقالت: «أظن أن هذا من سيأخذني إلى المطار».

فقال آش مقطباً: «كلا. أنا من سيأخذك وأنا لا أتوقع زواراً، ليس الآن على الأقل».

وعبس وهو يرى كورنيليوس يتجه إلى الباب ليفتحه.

سمعا صوت رجل يملأ الردهة: «جئت لأرى الآنسة غرير فخذني إليها، من فضلك».

شهقت تشيلي مذهولة وقالت بصوت خافت: «يا إلهي! إنه جيفري... جيفري شيلهام. ولكن كيف؟ هذا مستحيل».

تمتم كورنيليوس بشيء ما، لكن الزائر أجابه بعجرفة: «كلام فارغ. أعرف أنها هنا وكذلك الرجل المسمى بريتان. دعني أمر».

اشتدت يدا آش على يديها: «من هذا بحق جهنم؟».

هزت رأسها بعجز: «إنه يعمل عند أبي».

فتوترت شفتاه بخشونة وقال: «يا إلهي! حتى إنه لم يأت شخصياً».

حدقت إليه قائلة: «ما الذي تتحدث عنه؟».

- أظنك على وشك أن تعلمي.

وما هي إلا لحظات حتى وقف شيلهام عند العتبة. كان رجلاً طويلاً ذا شعر أشيب ووجهه أحمر جعلته الحرارة والضيق بلون القرميد.

هتف: «ميشيل يا فتاتي العزيزة، الحمد لله أنك بخير».

ثم حدّق إليها بضيق مضيفاً: «شعرك يبدو فظيعاً، ما الذي فعلته به؟».

قالت من دون أن تبتسم: «لقد قصصته، ما الذي تفعله هنا يا جيفري؟».

فأجاب بغطرسة: «كيف يمكنك أن تسألي يا عزيزتي؟ جئت لآخذك إلى الوطن، طبعاً. رغم أنني لا أحبذ أن تظهري أمام أبيك بهذا الشكل. ربما عليك أن تضعي شعراً مستعاراً ريثما يطول شعرك».

- لقد فعلت فلم يلائمني، كيف عرفت مكاني بالضبط؟

وشعرت فجأة بالبرودة بعد أن أدركت أنها ما زالت تمسك بيد آش.

- حسناً، الفضل يعود لبرينان هنا.

ونظر إلى آش وهو يومىء محيياً: «السير كليف يشكر لك جهودك في إنقاذ الآنسة غرير لكنه غير مسرور لأنك تجاهلت تعليماته ولم تحضرها إلى إنكلترا، فأرسلني إلى آخر العالم ما كلفه وقتاً ونقوداً. لقد أخبر رفيقك أنه يريد أن يحسم هذا المال من أجرك».

أتبع كلماته صمت بعمق البحر وفجأة وجدت تشيلي نفسها تكافح لتتنفس. وعندما استطاعت أن تتحرك، استدارت وحدقت في آش الذي وقف متحجر الوجه شابكاً ذراعيه على صدره وسألته بصوت أجش: «هل هذا صحيح؟ هل كنت تعرف من أنا طوال الوقت؟».

- نعم كنت أعلم. اقتفيا أثرك إلى سانت مارتينو ثم جئت أنا لأعيدك بنفسي.

شعرت بالغثيان وتوتر حلقها إلى حدّ الألم: «هل استخدمك أبي ودفع لك أجرك؟».

ضحك جيفري شيلهام وقال: «طبعاً يا عزيزتي، السيد برينان ورفيقه رجلا أعمال. وهما يديران شركة للحراسة والحماية فيتعقبان آثار المفقودين ويتفاوضان لإطلاق سراح الرهائن. لقد وقع السيد برينان اتفاقاً معنا بأجر مرتفع أم لعلك ظننت أنه فعل هذا حباً بك؟».

فقالت بهدوء: «كلا، لم أفكر في ذلك أبداً».

وشبكت ذراعيها على صدرها محاولة أن تهدىء ارتعاشها ثم عادت تنظر إلى آش الذي بقي جامداً بجانبها وقالت بسخرية باردة: «حسناً، لا يمكننا أن نقول إنك لا تكسب أموالك بعرق جبينك. هل لزبائنك السعر نفسه أم أنه يختلف باختلاف الأشخاص؟».

أجفل آش وتوتر فمه: «اصغي إليّ يا تشيلي. كنت سأخبرك، سأشرح لك الأمر. أقسم لك. ظننت أن الوقت لا يزال متاحاً أمامنا».

فقالت: «كان لدينا وقت على المركب. هل تحتاج لوقت طويل كي تخبرني أنهم باعوني؟».

فقال: «لم يكن الوضع بهذه البساطة، لاسيّما في البداية. اعتقدت أنك مجرد مهمة جديدة ووعدت أباك بأن أبقي الأمر سراً. كان هذا جزءاً من الاتفاقية. لقد ادّعى أنك عنيدة وقد ترفضين مرافقتي وقد تهربين ثانية إذا عرفت الحقيقة».

فتنفست تشيلي غاضبة وقالت: «حسناً! كان كلامه صحيحاً».

- لكنني أدركت على الفور أنك لا تريدين أن تعودي إليه. لم تذكري اسمه أبداً فعلمت أن المودة مفقودة بينكما. كل ما قلته عن بناء حياة جديدة، والاستقلال الذاتي، فهمت سببه. لقد قابلت أباك مرة فبدا لي

www.elromancia.com

أنه كان غاضباً منك أكثر منه قلقاً عليك. تحدث عنك وكأنك غرض ضاع منه كما أشار إلى أنها ليست المرة الأولى التي تحدثين فيها مثل هذه الفوضى وأنك فتاة جامحة لم تفعل شيئاً في حياتها. لكن بما أن مسألة رامون أساءت إلى سمعته، أراد أن نعالج هذا الأمر بهدوء وكتمان.

فحبست تشيلي أنفاسها: «يا إلهي! وأنت... صدّقته؟».

فقال: «نعم. كان يدفع لي أجراً لأعثر عليك يا تشيلي وليس لأصدر أحكاماً عليه. كما رأيت الصحف التي أكدت ما قاله. بعدئذ، قابلتك فوجدت أنك بعيدة كل البعد عن تلك الفتاة العنيفة، الباردة القلب التي وصفها. كنت شجاعة وعاجزة. مثيرة وخائفة في الوقت نفسه ومن البراءة بحيث كسرت قلبي. ولهذا رفضت أن آخذك إلى لندن. أردت أن أرى أباك بعيداً عن محيطه وأرى كيف سيتصرف معك لأتخذ قراري. ما زلت لا أصدق أنه لم يأتِ بنفسه».

فقال جيفري شيلهام: «السيد كليف رجل مشغول ولم تتعرض ميشيل للأذى كما لم تسجن أو تؤخذ رهينة. ففي مثل هذه الظروف كان ليأتي شخصياً، ولكن لم يصبها أيّ ضرر حقيقي. لقد اختارت الرجل غير المناسب لسوء الحظ».

فقالت تشيلي بمرارة: «يبدو أن الأمر أصبح عادة لدي».

والتفتت إلى آش مضيفة: «لماذا كنت تحاول أن ترسلني إلى غرينادا؟ هل كنت تخطط لإخفائي كي تتمكن من أن تبتز أبي وتطالبه بمزيد من المال؟ لا أدري ما هو سعري الحالي في السوق، عليّ أن أساله».

تحرّك آش بسرعة وغضب وأمسكها من كتفيها قائلاً: «أنت تعلمين أن هذا ليس صحيحاً. لم أشأ أن أعيدك رغم إرادتك إلى شخص لا يهتم بك. هذه هي الحقيقة، وعليك أن تصدقيني».

فقالت متحدية: «لماذا أصدقك بعد أن كذبت عليّ منذ اللحظة الأولى التي رأيتك فيها؟».

وهزت رأسها وأضافت: «سهلت عليك الأمر أليس كذلك... الابنة الغبية لرجل غني؟ لقد جهزت الطعم وأنا علقت بالصنارة، لماذا يا آش؟ هل وجدت أن والد حبيبتك الحالية ليس غنياً بقدر والدي؟».

فقال بخشونة: «ما الذي تتحدثين عنه بحق جهنم؟ ليس لي حبيبة رغم أنني ظننت أنه أصبح لدي واحدة».

- بل لديك مغفلة عمياء، مغفلة وثقت بك. لكني فتحت عيني الآن، ولهذا من الأفضل أن تعود لمغازلة ابنة صاحب المركب. أرجو أن تكتشف حقيقتك قبل أن تصلا إلى الكنيسة».

فنظر إليها غير مصدق وقال: «ابنة صاحب المركب؟ هل أنت مجنونة؟».

- كنت مجنونة لكنني لم أعد كذلك. وأرجوك أن ترفع يديك عني.

فقال جيفري شيلهام بحدة: «ميشيل، أنا أحاول أن أكون صبوراً هنا. لكن هل أفهم أنك كنت على علاقة ما بهذا الرجل؟».

فقالت: «كلا، ما من علاقة».

تركها آش وتراجع خطوة إلى الخلف. ثم قال: «تشيلي، حبيبتي، عليك أن تصغي إليّ من فضلك لأنك فهمت بشكل خاطىء. يحق لك أن تغضبي لكنني أريدك فقط أن تعرفي الحقيقة. ظننت أن غرينادا ستمنحنا مجالاً للتنفس، حيث يمكنني أن أشرح لك الأمر بشكل صحيح».

قالت ساخرة: «تشرح أم تخترع كذبة أخرى؟ شكراً يا إلهي لأنني اكتشفت ذلك أخيراً».

- بل أشرح لك الموضوع كله. ويمكننا أن نبدأ من جديد من دون أسرار.

فقالت ببطء: «هل تعلم؟... لو لم يكن هذا عملاً شنيعاً لوجدته فكاهياً. لكن لا مزاج لي للضحك».

ونظرت إلى جيفري شيلهام، الذي بدا على وجهه الصدمة والغضب.

- أظن أن أبي أجرى كافة ترتيبات عودتي إلى إنكلترا ولذلك علي أن أستغل ذلك، فلنذهب.

قال متصلباً: «حسناً جداً. لكنك تدركين أنّ عليّ أن اكتب تقريراً للسيد كليف».

ونظر إلى آش ساخطاً: «ومن الأفضل أن تبدأ بالبحث عن عمل آخر، إذا استطعت أن تجد عملاً. لقد اكتسبت عدواً شرساً يا صديقي».

فقال آش: «هذه آخر اهتماماتي».

استدار على عقبيه متجهاً إلى الحديقة، فأخذت تشيلي تنظر إليه وقد بدأ شعورها بالخيانة والخداع يخف، فأرادت أن تجثو على ركبتيها وتشكو خسارتها ووحدتها للسماء.

لكنها حدثت نفسها بأنها لا تستطيع أن تبكي الآن، فعليها أن تعود وتبدأ حياتها من جديد.

وستكون حياة حافلة بالألم، من دون حب، حياة ستستنزف ما لديها من شجاعة.

١٠ - أعطاني حياتي

قال جيفري بصوت خافت وهو يغلي غضباً: «هذا مشين. لا أجد الكلمات التي يمكنني وصف سلوكك بها».

فقالت تشيلي بابتسامة باردة: «أحقاً؟ لم أكن أعلم هذا».

لم تكن الرحلة بالسيارة إلى مطار سانت هيلير مريحة. لم تكن تشيلي التي هدّتها أفكارها التعيسة وذهولها قد تبادلت أكثر من كلمتين مع جيفري.

لكن هذا أجمل من أن يدوم فما إن ارتفعت بهما الطائرة الخاصة متجهة إلى باربادوس حتى أخذ جيفري ينتقدها بصوت منخفض: «يكفي سوءاً هربك مع ذلك الشاب التافه، لكن، على الأقل، كان لديك عذر وهو افتتانك به. والآن، تبدو علاقتك حميمة بذلك الرجل برينان... وهو الذي بالكاد تعرفينه. إنه رجل غريب تماماً. ألا تخجلين؟».

فقالت متحدية: «نعم أنا أشعر بخجل بالغ لأنني لم أواجه أبي منذ سنوات، ولأنني هربت منه بدلاً من أن أواجهه. فهل ينفع هذا؟».

فهز رأسه: «لا داعي للوقاحة. إن كلام أختي صحيح تماماً. أعني بالنسبة إلى الصحف، فلطالما قالت لي «إن ما من دخان من دون نار».

استعادت تشيلي صورة إيلين بالكشمير واللآلىء والاستكبار على وجهها وقالت: «آه يا لها من فكرة عظيمة!... هل أفهم من هذا أنك قررت الانسحاب من الاتفاقية التي عقدتها أنت وأبي؟».

فقال: «لا أدري ما الذي تتحدثين عنه».

www.elromancia.com

فتنهدت: «بل أنت تفهمني يا جيفري. أليس هذا هو السبب الذي جعل أبي يرسلك إلى سانت هيلير بدلاً من أن يأتي بنفسه؟ والسبب الذي جعلك توافق على الحضور؟ ظن أن محنتي ستجعلني أستسلم فاضع رأسي على كتفك وأبكي شاكرة؟».

فتوتر فمه: «أخبرت أباك أنني مستعد للتغاضي عن غلطتك».

فابتسمت من دون بهجة: «لهذا أرسلك أبي بسرعة كي تأخذني وأنا في الحضيض».

- على أيّ حال، ونظراً لفضيحتك المزعجة...

فقاطعته: «رأيت أنني سأكون أكثر مرونة. هذه حكمة بالغة يا جيف. وهكذا ثمة ضوء في نهاية النفق».

حملق فيها: «سوف يأتي وقت، يا ميشيل، تتمنين فيه لو لم ترفضيني بهذه الخفة».

- جيفري... كما حاولت أن أفسر لك من قبل، أنا لن أقبل بك ولو كنت آخر رجل في العالم.

فقال باسماً بسخرية: «هذا جميل. على أيّ حال، لا أظنك فكرت في نتائج سلوكك».

- كلا. أنا غير مستعدة لإضاعة الوقت في تخمينات لا فائدة منها. سأواجه العواقب لاحقاً.

تمنت أن تكون قد جرحته في كرامته إلى حدّ يجعله يصمت. لكن الأذى الذي أصاب كبرياءه كان أكبر، وازدادت شكواه.

وأخيراً قاطعته: «أنا على هذه الطائرة معك لأنني سبق وقررت أن أعود إلى إنكلترا، ولا علاقة لقراري برغبات أبي».

فقال: «عليك أن تطيعي أوامره إذا شئت أن تحصلي على طعام أو مأوى».

ردّت بحدة: «ثمة أناس يكسبون معيشتهم بأنفسهم وهذا ما سأفعله

أنا».

- من دون أي تدريب أو وصية؟ لا أظن ذلك. ولن تقبل بتشغيلك أي من الشركات التي يتعامل معها أبوك إذا ما علمت أنك تعملين ضد رغبته.

فقالت: «ثمة أماكن لا يعرفونه فيها وسأبحث عنها».

وأشاحت بوجهها عنه متظاهرة بأنها تريد أن تنام، لكنها كانت تغلي في أعماقها. فكلامه فيه الكثير من الحقيقة. بدا المستقبل كئيباً ومخيفاً لكن فكرة الاستسلام لمشيئة أبيها أسوأ.

فكرت في أنها هربت مرة ولن تكرر فعلتها فهي لم تعد الفتاة نفسها التي ظنت أن شخصاً مثل رامون قد يكون هو الحل. فهي تعرف الآن أن ليس لديها سوى نفسها تعتمد عليها. وخنقتها دموع حارة لكنها كبحتها.

كان جيفري على حق عندما وصف آش بأنه رجل غريب تماماً عنها، وشعرت بمرارة.

ظاهرياً، خلّصها السيد غالاهاد من الخطر لكنه في الواقع باعها واستلم الثمن.

كان عليها أن تدرك أنه ليس كما يبدو، وعضت على شفتها. كانت الدلائل كلها موجودة ولكن انجذابها إليه جعلها تقع ضحية خداعه.

كان يعرف تماماً أين يجدها، كما أنه اقتحم مكتب ماماريتا وضرب مانويل. وهذه ليست بتصرفات عادية يقدم عليها أيّ عابر سبيل حتى في سانت مارتينو.

أنا أعرف الآن لماذا أصرّ على الاحتفاظ بجواز سفري، فهو لم يشأ أن أهرب مرة أخرى. وذكرها صوت خافت في أعماقها بأنه أعاده إليها، وأنه كان يخطط لإبعادها عن سانت هيلير قبل أن يطبق عليها الفخ.

وتنهدت. لقد قال إنه يريد أن يكون معها، لكن بعد ذلك الخداع كله، كيف يمكنها أن تصدق كلمة مما قال؟

www.elromancia.com

كل ما تعرف عنه هو اسمه ومشاعرها نحوه وهي ليست كافية لبناء علاقة دائمة. وأخذت تحدث نفسها ساخرة: لقد سمحت لنفسي بأن أحلم وهذا يكشف كم أني بحاجة لوقت لكي أنضج.

بقي ينكر وجود علاقة جادة بينه وبين جولي هاورد، رغم وجود الصورة بجانب سريره. كما أنّ ثمة حنان حقيقي في صوته عندما يتحدث عنها. ورغم أن الذهول بدا عليه لهذه الفكرة إلاّ أنّ الدلائل ضده. كيف يمكنه أن يتنقّل كما يشاء بالمركب ويدعو من يشاء إلى المركب في غياب صاحبه... إذا لم يكن يعتبر فرداً من الأسرة؟

لكنها ليست مضطرة للحكم على آش بريتان، وعلى علاقاته العاطفية. ليس بعد الآن. لقد خرجت من حياته، والمسافة تتسع بينهما مع مرور الدقائق. لكن آخر صورة له وهو يبتعد عنها ما زالت تثير في نفسها الألم.

بقيت تتظاهر بالنعاس حتى هبطت بهما الطائرة في باربادوس، حيث كانت تنتظرهما سيارة حملتهما من المطار إلى فندق «الشاطىء الذهبي». وأخبرها جيفري بهدوء أنهما سيمضيان ليلة فيه قبل المرحلة الأخيرة من رحلة عودتهما إلى إنكلترا في الصباح التالي.

وفكرت تشيلي، والسيارة تتجاوز البوابة الحديدية العالية للفندق، أن هذه ساعاتها الأخيرة بين أحضان الرفاهية.

كان الفندق فخماً بأرضه الرخامية، والموسيقى الناعمة في أرجائه. ويقيم النزلاء فيه في غرف موزعة في أنحاء الحدائق ذات الجمال الطبيعي، كما يضم ثلاث برك للسباحة.

عندما ابتعدت عن مكتب الاستعلامات، رأت جيفري يرمق حقيبتها المتواضعة باستغراب ثم سألها: «هل هذا كل ما لديك من أمتعة؟».

فقالت: «كان لدي أمور أخرى تشغلني».

ونظر إلى الثوب الذي ترتديه بخبث: «لا أظن أن لديك ملابس غير

هذا الثوب. الإقامة هنا تتطلب ثوباً من نوع آخر».

فقالت وهي تستبعد الثوب الرمادي الذي اشتراه لها آش: «أنا واثقة من ذلك، لكنني لا أملك سوى هذا الثوب الذي تراه علي».

- سأطلب منهم أن يحضروا العشاء إلى غرفتك فلا يراك أحد.

نظرت إلى قميصها القطني المقفل وقالت: «حقاً؟».

فأجاب: «نعم».

- لكنني سأتناول العشاء في المطعم كالآخرين. سأجلس إلى مائدة منعزلة إذا كنت سأصبح مصدر إحراج لك.

احمر وجه جيفري لكنه عاد إلى المكتب وحجز مائدة لإثنين للساعة التاسعة.

فقالت تشيلي: «هذا حسن. سأراك في ما بعد...».

بعدئذ، تركته وسارت مع الحمّال. لكن عندما أصبحت وحدها في شقتها، فقدت شجاعتها. وقفت تنظر إلى الجمال الذي يحيط بها والأصوات والضحكات وصوت رشاش المياه من عند البحيرة ما زاد من شعورها المفاجىء بالوحدة. إذا كانت صادقة، فستعترف بأن كلام جيفري تركها ترتجف في داخلها، رغم أن المواجهة مع أبيها ستكون أسوأ. ولكن كيف حدث أن فكر جيفري بالزواج منها؟

يا إلهي! إنه لا يشعر نحوي حتى بالمودة. غسلت تنورتها وقميصها ونشرتهما وهي تفكر في أنها ستلقي بهما في القمامة حال وصولها إلى الوطن.

كانت قد رأت قرب مكتب الاستقبال متجراً يبيع ملابس للشاطىء، لكنها لم ترغب في الانضمام إلى الآخرين حول حوض السباحة.

لم يغب وجه آش عن ذاكرتها، فراحت تستعيد كلماته وحركاته وحتى رائحة عطره.

وحدثت نفسها قائلة: علي ألاّ أستعيد ذكرى تلك الأمور. عليّ ألاّ

www.elromancia.com

أتذكر الحبيب بل الرجل الذي خدعني وباعني، الرجل الذي لا يمكنني أن أصفح عنه كما لا يمكنني أن أنساه. وأخيراً، سمحت لنفسها بأن تبكي كل ما فقدته.

* * *

كان جيفري قد سبقها إلى المطعم عندما نزلت تشيلي هادئة متمالكة نفسها.

كان يلبس سروالاً من الكتان بلون القشدة مع قميص أحمر قاتم وربطة عنق، ويشرب عصيراً من قشةٍ مغروسة في جوزة هند مفرغة.

قال: «ها قد جئت أخيراً».

كان في صوته ما يدل على أنه انتظرها طويلاً.

قالت بمرح: «يسرّني أنك لاحظت وجودي يا جيفري».

كان المطعم فسيحاً مزدحماً بالزبائن حيث النساء يرفلن بالمجوهرات، بينما صبغت الشمس بشرتهن التي كشفن عنها بسخاء لم يخف على جيفري أثناء تناوله الطعام.

قال لها وهو يرى فتاة ترتدي ثوباً من الشيفون الوردي: «ستبدين جميلة في ثوب كهذا».

ردّت عليه من دون أن تبتسم: «أعرف سيدة تدعى ماماريتا قد توافقك الرأي».

وعادت تشرب المياه المعدنية، فيما قال: «لم أسمع باسمها من قبل».

ثم سكت قليلاً وعاد يقول: «إنك لا تكثرين من الكلام الليلة، أليس كذلك؟».

- لديّ الكثير لأفكر فيه.

فقال وهو يبتسم بشكل كريه: «تفكرين في ما سيفعله عشيقك؟ الأمر بسيط. للرجال أمثاله فتاة تنتظره في كل محطة، فلا يشعر بالوحدة».

فقالت وهي تضع الشوكة والسكين من يدها: «ما يهمني هو المستقبل

وليس الماضي. وكما سبق أن قلت، عليّ أن أفكر في عمل أعتاش منه عندما أعود إلى الوطن».

- ما من مشكلة بالنسبة إلى فتاة متعددة المواهب مثلك.

ورمقها بنظرة فاسقة متابعاً: «اعملي في المجال الذي تبرعين فيه، هذه هي نصيحتي».

أخرسها الذهول، وتصاعد غضبها بشكل خطير بينما تابع هو يقول بكل ثقة وهو يميل نحوها: «لا مانع لدي من أن أكون أول زبون لديك. على أيّ حال لا بد أنك ستشعرين بالوحدة هذه الليلة، وقد يفيدك أن يكون لك رفيق».

نهضت تشيلي واقفة وقالت بهدوء: «أظن أنك فقدت صوابك».

بعدئذ، استدارت وتناولت زجاجة العصير من على المائدة وأفرغت ما فيها في حجره، فهتف: «أيتها القطة المتوحشة! سأخبر أباك بما حدث».

وراح ينفض سرواله ويمسحه بالفوطة فيما تعالت الضحكات على الموائد خلفه.

- نعم أخبر أبي بسرعة يا عزيزي جيفري، وستجد نفسك أنت أيضاً تبحث عن عمل جديد.

واستدارت على عقبيها وخرجت من المطعم.

* * *

كان الجو ماطراً حين خرجت تشيلي من المكتب. سارت إلى أقرب موقفٍ للباصات لكنها لم تجد الباص، ما يعني أنها قد تتأخر على موعد الغداء مع أبيها وتنهدت.

كان هذا تنازلاً منها قبلته كارهة بعد صراع طويل لكي تستقل بذاتها.

كانت العودة إلى بيتها صعبة، فقد استقبلها أبوها بهدوء لئيم يسبق العاصفة. ولم تتأخر العاصفة في الهبوب فلم يظهر كليف غرير أي عطف على ابنته المتمردة رغم الأخطار التي تعرضت لها. وراح يتحدث عن

www.elromancia.com

الحماقة والعناد اللذين أظهرتهما وهو يهدر قائلاً: «أتعلمين أني دفعت ثروة لكي أعيدك سالمة إلى هنا؟».

فقالت بألم: «نعم، أعلم هذا».

حملق إليها وقال: «وكل هذا من أجل مغامر سعى وراء مالك. كما أنّ جيفري وجد نفسه مرغماً على أن يخبرني بكل ما عرفه».

فقالت بجفاء: «طبعاً. خادمك الأمين المخلص».

رد عليها عابساً: «ليس لمدة طويلة فهو سيتقاعد مبكراً لسبب ما. لذا، سأفقد يدي اليمنى».

حسناً، ستخبر أباها أنها ستترك شقتها وتستأجر في بيت مع ثلاث فتيات أخريات كنّ قد وضعن إعلاناً يطلبن فيه فتاة رابعة تشاركهن الشقة. كما أنها وجدت عملاً كموظفة استقبال وتوثيق في شركة محاسبة.

عاد أبوها إلى عادته القديمة فراح يصدر الأوامر تارة، ويتملق طوراً كما استخدم معها التهديد والرشوة. حتى إنه جرّب الابتزاز العاطفي حين قال: «لم أعد شاباً وتصميم جيفري على الرحيل كان أشبه بالعاصفة. إنني بحاجة إلى عونك يا ميشيل، إلى مساندتك».

- أنا أريد حياتي الخاصة.

قالت هذا بصلابة الصخر، لم تشأ أن يقنعها بالعودة إلى حياتها السابقة في البيت.

فقال بغضب لم تعهده منه من قبل: «إذاً أخرجي وعيشي وحدك لكنك لن تنالي شيئاً مني، فلا تعودي إليّ باكية عندما تجدين نفسك من دون مأوى».

مضى شهر لم تسمع فيه كلمة أخرى منه ثم اتصل بها شخصياً، وليس عن طريق سكرتيرة، وسألها إن كانت ترضى بأن تتناول معه الغداء في النادي. وافقت، رغم عدم رغبتها في مقابلته في هذا المكان بالذات، خوفاً من أن يبدأ مناوراته ضدها.

فكرت وهي تتذكر معاركهما السابقة في أنها لا تستطيع أن تبدأ ذلك من جديد. لا يمكنها ذلك. فبعد أن تمكنت من اكتساب نفسية هادئة مستقرة، لا تريد أن تخرج عن اتزانها مرة أخرى.

لكن وجبة الطعام مرت بشكل أفضل مما توقعت إذ التزما تماماً بالمواضيع العامة. لكنها كانت واثقة من أنه يبحث جاداً عن ثغرة في دفاعاتها.

وكاد يعثر عليها، فهي تستمتع دوماً بوجودها في المنزل الكبير أكثر من أي شيء آخر في حياتها، وعندما ذكر بعفوية أنه سيقيم حفلاً منزلياً صغيراً وسألها إن كانت تريد أن تحضره، أغرتها الفكرة.

لكنها رأت ذلك... ذلك اللمعان الغادر المنتصر... فغيرت رأيها مبدية أسفها بدلاً من القبول. أخفى خيبة أمله جيداً، لكنها علمت أن هذه لن تكون آخر محاولاته لجعلها تمتثل لرأيه، وأن عليها أن تكون حذرة. كان جالساً إلى مائدته المعتادة في الزاوية. لفتها مغلف أسمر وضعه قرب يده على الغطاء الأبيض. عندما اقتربت منه، هبّ واقفاً. وعندما جلست قال لها: «يبدو عليك الهزال. يبدو أنك لا تأكلين جيداً».

فقالت: «أنا بأحسن حال، آكل ثلاث مرات في اليوم، بما في ذلك العشاء الذي تتناوب على إعداده الفتيات».

لم يهتم بكلامها هذا وعاد يقول: «كما أنك تبدين شاحبة».

- سمرة جزر الكاريبي لم تدم طويلاً.

بقيت لهجتها مرحة لكنها عجبت وهي ترى فمه يتوتر ويده تنقبض على المغلف.

وعندما قدّم لها الحساء، قال: «أما زلت في ذلك العمل؟».

فقالت باسمة: «إنه يسدد الإيجار... وأجرة دروس الغناء».

ارتفع حاجباه بتلك الطريقة الغاضبة التي اعتادت أن تخفيها: «ما زلت تتابعين ذلك الهراء؟».

www.elromancia.com

فردت عليه بهدوء: «إنه يشعرني بمتعة. كما يبدو أن بعض الناس يستمتعون به، هم أيضاً. ساعدني معلمي جوردن في الغناء في حفلتين تلقيت عليهما أجراً، وساغني في حفلة أخرى الليلة القادمة. إنها حفلة خاصة».

فاشتد عبوسه: «أرجو ألاّ تستعملي اسمك!».

- أسمي نفسي (تشيلي) لكنني لا أذكر شهرتي (غرير)... لماذا تكره غنائي إلى هذا الحد، يا أبي؟

فقال من دون أن ينظر إليها: «لأنه سلبني أمك. فهي لم تكن زوجتي وحدي أبداً... كما أردتها أن تكون. هل أرضاك هذا الجواب؟».

وحملق فيها، فقالت بعد حين: «يقولون إنك كلما سمحت للآخرين بأن يبتعدوا كلما رغبوا في العودة إليك».

فقال ساخراً: «من أين جئت بهذا المنطق السخيف؟ ومن الذي عاد إليك مؤخراً؟ لا أظنه منقذك الشهم النبيل».

وضعت ملعقة الحساء في صحنها بعناية بالغة وهي تقول: «كلا».

فقال: «وأنت أيضاً لن تعودي إليه. لقد جعلتهم يطردونه من الشركة التي يعمل فيها. قلت لهم إنني سأدمر الشركة إذا بقي فيها... أنا واثق من أنه يتمنى الآن لو لم يستعجل في إعادة نصيبه من المال الذي دفعته لهم. إنه تصرّف غريب من شخص يعيش من وراء ذكائه، ولن يتمكن أبداً من أن يحصل على مبلغ مثله مرة أخرى».

شعرت تشيلي بطنين مفاجىء في أذنيها وقالت بصوت غريب: «هل تقول... إن آش أعاد إليك النقود؟».

فأجاب وهو يرفع المغلف: «نعم، المبلغ كله في هذا التقرير الذي سلّمه قبل أن يرحل. لقد أعاد الشيك بنفسه».

فقالت: «هل ذكر السبب؟».

فأجاب: «هناك ملاحظة فيها تعليقٌ متغطرس عن المال الملعون وقد

مزقتها. أتريدين قراءة التقرير؟ لتري كم كلفتني؟».

فهزت رأسها وقالت بيأس: «أبي... الملاحظة... هل... تحدثت عني؟».

فضاقت عيناه وقال: «كلا، لقد خرج من الشركة ومن حياتك».

أغمضت عينيها شاعرة بالغثيان: «بفضلك أنت. كيف أمكنك أن تفعل ذلك؟».

فقال بخشونة: «لقد استخدمته لينقذك من عواقب حماقتك وليس ليستغل وضعك».

وقفت تشيلي محاولة أن تتحكم في تنفسها المضطرب وقالت: «لدي خبر لك يا أبي وهو أن ما حصل هو العكس... أنا التي أغريته لكنه لم يستسلم لرغباته. ولم يمض ليل أو نهار لم أفتقده فيه. ولو كان هنا الآن، لأخبرته أنني أحبه».

وعندما استدارت لترحل وقف أبوها هو أيضاً قائلاً: «إلى أين أنت ذاهبة؟».

فأجابت: «لأبحث عنه. هذا إذا لم يكن الأوان قد فات».

فقال: «أنت حمقاء، وليس لدي وقت للحمقى يا ميشيل، وأنا أحذرك. لقد ساعدتك مرة لكن هذا لن يتكرر».

تسمّرت مكانها ولم تجب، فتابع ساخراً: «هل هذا ما تسمينه حياة خاصة؟ أن تلاحقي رجلاً لم يفكر فيك منذ تركته؟».

قالت برقة: «لكنك مخطىء. فقد أعطاني حياتي».

واختطفت معطفها وخرجت.

www.elromancia.com

١١ - عودة الضال

- سأحضر لك القرطين اللذين تريدين استعارتهما.

دخلت جان إلى غرفة تشيلي بعد أن طرقت الباب، ثم وقفت عابسة وقالت: «أنت ذاهبة إلى حفلة الليلة وليس إلى جنازة. ما الذي حدث؟».

عضت تشيلي شفتها وقالت: «لم يكن يومي جيداً. حاولت أن أقتفي أثر شخص ما... صديقٌ قديم وحتى الساعة لم يحالفني الحظ».

فقالت جان: «والصديق القديم رجلٌ، طبعاً».

- نعم، كيف عرفت؟

هزت جان كتفيها: «كنت تبكين ما جعلني أدرك ذلك».

نظرت تشيلي إلى نفسها في المرآة وقالت: «يا إلهي! هل هذا ما زال ظاهراً حتى بعد أن غسلت عينيّ؟».

فقالت جان: «لا تهتمي لذلك. لدى لورنا قطرة للعينين تفعل الأعاجيب وستكونين على ما يرام... ثم إنّ ثوبك هذا رائع. لم أره عليك من قبل».

كان ثوبها الرمادي يموج عندما تتحرك، وقالت: «لم ألبسه قط من قبل. لكنني الليلة فكرت في أن ألبسه».

فسألتها جان: «من الذي يقيم هذه الحفلة؟».

فأجابت تشيلي: «فتاة تدعى «انجيلا ويستليك»... أو بالأحرى والداها. إنه عيد ميلادها الحادي والعشرين، وقد طلبوا من جوردن أن يعزف على البيانو أثناء العشاء، وسألوه إن كان يعرف أحداً يغني».

فقالت جان ضاحكة: «إذا لم تكوني حذرة يا حبيبتي، فسينتهي بك الأمر وقد أصبحت مشهورة. تذكري فقط من أعارتك القرطين اللذين جعلاك تبدئين».

عندما أصبحت تشيلي وحدها مرة أخرى، أكملت زينة وجهها من دون حماسة، وهي تحدّق في المرآة بعينين حزينتين. لقد ظنت أنها ستعثر على آش بسهولة، بمجرد أن تجري اتصالاً هاتفياً.

لكن، عندما وجدت أخيراً الشجاعة لكي تتصل بالشركة التي كان يعمل فيها، أجابتها امرأة بصوت بارد كالثلج أنهم لا يعطون معلومات عن المستخدمين القدماء أو الجدد.

الأمل الوحيد الذي بقي لها هو أن تتصل بمنزل أركادي. لعله ذهب ليقيم هناك ويفكر في ما سيفعله لتسوية وضعه.

لكن موظف الهاتف الدولي لم يستطع أن يساعدها. ما من شخص في سانت هيلير يدعى هاورد. أصبح الطريق مسدوداً، كما أخذت تفكر بكآبة. لا يمكنها أن تستأجر مخبراً خاصاً لكي يبحث عن آش، أو أن تذهب إلى جزر الكاريبي بنفسها. كما أنها ليست واثقة مما قد تجده في أركادي. فثمة سؤال من دون جواب عن جولي هاورد، التي لربما استعادت أهميتها في حياته.

لعلها فترت مسألة إعادة المال بشكل خاطىء أيضاً. من قال إنه أعاده بسبب مشاعر ما زال يكنّها لها؟ ربما... أو من المحتمل أكثر... لعلها ببساطة طريقة آش في شطب حدثٍ يريد أن ينساه. على أي حال علاقتهما لم تنفعه كثيراً، ولعله يريد أن يمحو الماضي.

وربما من الأفضل لها أن تفعل مثله.

التقطت أحمر الشفاه ثم عادت فوضعته، وأغمضت عينيها. ليت الأمر بهذه البساطة، لكنه ليس كذلك. فآش يشغل أفكارها طوال النهار، وفي الليل تتقلّب في سريرها من دون راحة، يتآكلها الشوق إليه.

لذا، لم تكن مستعدة للتخلي عنه حالياً، ما دام هناك ذرة أمل... أو طريق آخر يمكنها أن تسلكه.

فكرت في لورنت وارتجفت شفتاها بابتسامة. إنه يبحر مع آش، كما أنهما صديقان، ولا بد أنه يعرف مكان آش. وإذا لم يخبرها بمكانه، فهذا يعني أن آش لا يريد أن يعثر عليه أحد. عندئذ، ستكفّ عن البحث عنه مهما كان ذلك صعباً. نظرت إلى ساعتها. ليس لديها وقت للاتصال هذا المساء، فعليها أن تحضر الحفل... إنه واجب مهني عليها أن تقوم به. لكن غداً يوم آخر.

رفعت رأسها. ستفعل ذلك، لم يته الأمر بعد...

* * *

أقيمت الحفلة في منزل فسيح وتحديداً في ساحة مظللة بالأشجار. وكانت في أوجها عندما وصلا. استقبلتهما المضيفة وهي امرأة طويلة جذابة ذات ابتسامة حلوة قائلة: «مرحباً، أنت جوردن؟».

وجدت تشيلي نفسها تتلقى نظرة مودة متفحصة: «وأنت، لا بد أنك تشيلي. ما أجمل التعرف إليك. ضعي معطفك في غرفة المعاطف في الطابق السفلي، وسآخذك إلى حيث ستغنين».

قادتهما إلى غرفة فسيحة في الطابق الأرضي حيث يقدم العشاء. رأيا مقصفاً يسيل له اللعاب، ومائدة كبيرة عليها كافة أنواع العصائر وعدداً من الموائد الصغيرة والكرسي، ومعظمها يواجه البيانو في الناحية الأخرى من القاعة.

أخذ جوردن يجربه بلطف راضياً فيما عادت أنجيلا إلى الضيوف.

قال لتشيلي: «لقد وافقوا على البرنامج، كافة الأغاني التي تعرفينها والتي تدرّبنا عليها، وثمة مجال لبعض الطلبات. سأعزف بعض الموسيقى ريثما ينتهي تقديم الطعام، ثم يأتي دورك... تبدين مختلفة هذه الليلة... متألقة بشكل ما».

فقالت وهي تدور بثوبها: «إنه الثوب».

فقال: «كلا. الأمر أكثر من ذلك. ولكن أسبغي شيئاً من هذا على أدائك. لا تتراجعي، يا تشيلي. أريهم موهبتك كاملة».

- ألا أفعل هذا دوماً؟

فهز كتفيه: «أحياناً أشعر أن قلبك وعقلك في مكان آخر».

- هذه الليلة سيحصلون عليّ كلياً، فأنا أريد أن يعلو صوتي على صوت مضغ الطعام.

لكن الغريب أنها لم تضطر لأن تتنافس مع قرقعة الكؤوس وأدوات الطعام، وعندما شرعت تغني والموسيقى تعزف ارتفع التصفيق حاراً قوياً.

رأت أنجيلا ويستليك واقفة في طرف الغرفة، تبتسم وترفع لها إبهامها مشجعة.

أعلن جوردن: «نحن عادة نلبي الطلبات في النهاية لكن جاءنا طلب خاص للغاية. إذا شاءت تشيلي، فستغنيها لنا».

أخذت تشيلي تفكر باسمة في ما إذا كان سيطلعها على اسم الأغنية أم أن عليها أن تتكهن. وعندما سمعت الافتتاحية الموسيقية شعرت بقلبها يثب بجنون. ليس هذه الأغنية من بين الأغاني كلها... رجاء!

لكنها لم تستطع إلا أن تستهل الأغنية: (أريد رجلاً يحميني).

لم تكن قد أكملت الجملة الأولى بعد عندما رأته. كان مستنداً إلى جانب الباب يكاد لا يميّز بربطة عنقه السوداء وسترة العشاء. كان ينظر إليها من فوق الرؤوس كما فعل حينذاك، في أول مرة.

لكن لم يعد هناك أناس آخرون الآن! شعرت أن الغرفة خالية وراحت تغني بكل تلك الكآبة والعذوبة لآش وحده، والبحة الخفيفة في صوتها تضفي حزناً إضافياً على الكلمات، ما جعل نظراته تتعلق بنظراتها.

وعندما انتهت الأغنية، ساد الصمت للحظة قبل أن يبدأ التصفيق.

www.elromancia.com

وبعد أن أحنت رأسها بالتحية أخذت عيناها تبحثان عن آش لترى إن كان يشارك الآخرين التصفيق. . . وما إذا كان يبتسم.

لكن آش كان يستدير ليخرج. وقف لحظة عند الباب يتبادل كلمة مع أنجيلا ويستليك ثم طبع على خدها قبلة سريعة.

تمتمت تشيلي بذعر: يا إلهي، إنه راحل. إنه راحل مرة أخرى وإذا فعل فلن أعثر عليه قط.

والتفتت إلى جوردن: «أنا آسفة. ثمة شخص عليّ أن أتحدث إليه. أنا مضطرة لذلك».

شقت طريقها بين الضيوف، مرغمة نفسها على الابتسام. كلما لمست كتفها يد تهنئها على الأغنية، التفتت مبتسمة بينما كل ما تريده هو أن تركض، لتلحق بآش.

كان على وشك أن يصل إلى قمة السلم عندما أمسكت به قائلة: «آش. . . انتظر. . . أرجوك. تحدّث إليّ».

كان صوتها يائساً، فالتفت ببطء ونظر إليها بعينين كئيبتين وقال: «إنك ترتدين الثوب».

فأجابت: «نعم. . . ثمة شيء جعلني أفعل ذلك فهل لديك مانع؟».

فقال: «وكيف أفعل؟ إنك تبدين رائعة الجمال إلى حد خطف أنفاسي».

- رغم شعري القصير؟

- وربما بسببه.

ولامس شعرها بأصابع بالغة الرقة.

فقالت: «لكنني لم أكن أطلب المديح. أريد أن أتحدث. . . ثمة أمور ينبغي أن تقال».

ونظرت إليه متفحصة. فقال بهدوء: «لكن لعل هذا ليس بالوقت المناسب. سيفتقدك جمهورك».

فابتلعت ريقها قائلة: «لم أكن أغني لهم، كنت أغني لك، ولا بد أنك عرفت ذلك، فلماذا ترحل؟ لأن هذا ما ستفعله، أليس كذلك؟ سترحل وتتركني».

فقال بصوت جاف: «لا بد من ذلك؟».

لكنها لم تتزحزح وسألته: «ولكن لماذا؟».

فقال برقة: «تشيلي صوتك سيوصلك إلى القمة وأنا سأقف في طريقك. من الأفضل أن أذهب».

فقالت بغضب مفاجيء: «إذا كان هذا شعورك فلماذا أعدت النقود؟».

تصلب وقال: «من أخبرك أنني فعلت ذلك؟».

فقالت: «أخبرني أبي. . . ومن غيره؟ قال إنك مجنون».

فقال: «نعم أنا واثق من أنه قال ذلك. لكنني لم أتوقع أن يخبرك بما فعلته. ظننته سيحتفظ بذلك سراً».

فقالت: «أنا واثقة من أنه سيتمنى لو فعل ذلك لأنك لن ترحل من دوني بعد الآن».

ورفعت يدها تلامس وجنته قائلة: «لقد جعلك تفقد وظيفتك يا آش وأنا آسفة للغاية لأنه سيمنعك من الحصول على وظيفة أخرى. ليس لديك فكرة عن مدى نفوذه».

- أصبح لدي فكرة جيدة عن مدى تأثيره فيك.

وعبس آش ثم جلس على السلم وجذبها إلى جانبه مضيفاً: «تشيلي، لم يطردني أحد من عملي لاسيّما أبوك. كنت قد صممت على ترك العمل. . . ورتبت الأمر مسبقاً، لكنهم طلبوا مني أن أنفذ هذه المهمة الأخيرة لأنه العمل الذي أحسنه. رفضت في البداية لاسيّما عندما قيل لي إنك فتاة غنية فاسدة تريد أن تعيش كما يحلو لها. وأنا أكره هذا النوع من النساء. بعدئذ، راح أبوك يعرض مبلغاً أكبر بحماقة، فأدركت أن هذا

العمل سيأتي بمبلغ لا بأس به. ولهذا... وافقت على العمل ولكن ضمن شروط هي أن أقوم بالعمل دون أن أشارك أحداً حتى النهاية. ولكن الأرض اهتزت تحت قدمي حين رأيتك ولم يعد لدي قواعد. رأيتك فتملكني الضياع. وحصلت هذه المعجزة التي لا تصدق، معجزة الحب التي لم أكن أؤمن بها أبداً. حينذاك، أدركت أنه لا يمكن أن آخذ منك أجراً، لأنني كرست لك حياتي. أردت أن أخبرك بكل هذا، يا حبيبتي، لا بل أكثر بكثير، وإذا بذلك المهرج يحضر قبل الموعد بيوم. فأفسد خطتي ودبّت الفوضى. ظننت أنني خسرتك إلى الأبد، وأن ما كان بيننا تحطم نهائياً. كان لديك الحق في أن تغضبي وتتألمي لخداعي لك، وأن ترفضي أي تفسير مني. على أيّ حال، لم يعد يهمني أي شيء آخر، فحرصت على أن يستلم فيكتور المال من الشركة، ثم ابتعدت عن كل شيء».

فقالت بصوت مرتجف: «لكن هذا ليس كل شيء، يا آش. ثمة سبب آخر جعلك ترحل. لم تخبرني الحقيقة عن جولي قط، بينما كان ينبغي عليك ذلك. هل تحبها؟ هل تحبك؟».

فقال: «جولي هي أختي، وهي متلهفة للتعرف إليك».

تنفّست بعمق: «أختك؟ يا إلهي! قلت لي إنها ابنة صاحب المركب. كما أنك تضع صورتها بجانب سريرك».

- بل بجانب سرير أبي. في الواقع، إنه صاحب المركب، وهو رجل عاطفي للغاية. ثمة صورة لي أيضاً، لكنني قررت أن أبعدها وأضعها في مكان آمن مع جواز سفرك لئلا تكتشفي الحقيقة. لكن لم يخطر لي أنك ستخلطين الأمور. أنا وجولي متشابهان، إذا نظرت إلينا.

- إذن فالسيد هاورد... أبوك؟

طرحت عليه هذا السؤال وقد غمرها السرور، فأجاب: «نعم. ويمكنني أن أريك شهادتي ميلادي وميلاد جولي إذا شئت».

فقالت شبه نائحة: «لماذا لم تخبرني بكل هذا؟ لماذا لم تشرح لي الحقيقة

في أركادي؟».

- نوع عملي يفرض عليّ كتمان تفاصيل حياتي قدر الإمكان. لقد تعلمت هذا في الجيش. لا يمكن للواحد منا أن يقيم علاقة شخصية مع الزبون. حاولت جهدي أن أبقى بعيداً عنك حتى تنتهي مهمتي، لكننا نعلم ما جرى لنيّتنا الطيبة تلك. على أيّ حال، يا حبيبتي، ظننتك تعلمين... وأنك تكهنت من أنا وما هي مهمتي. أنت قلت لي ذلك.

فقالت: «كنت أتحدث عن جولي. ظننتكما مخطوبين».

- إذا كنت مخطوباً فهل كنت لأتقرب منك؟ فكرتك عني ليست جيدة.

فقالت: «لم أكن أعرفك. كنت حريصاً جداً على أن تبعدني عنك. حاولت فقط أن أفهم هذا كله، وفشلت بشكل تعيس. لم أستطع أن أفكر بشكل قويم... وهذا تفسير للموقف وليس اعتذاراً. والآن أخبرني، لماذا جئت إلى هنا الليلة إذا كنت تريد أن ترحل مرة أخرى؟».

فقال بخشونة مفاجئة: «لست واثقاً مما كنت أريده. كل ما أعرفه هو أنني كنت بحاجة لأن أراك لآخر مرة قبل رحيلي. كنت متلهفاً لذلك كلهفتي للهواء الذي أتنفسه. لكن لو لم تلحقي بي يا تشيلي لتركت لك حياتك وخرجت منها إلى الأبد».

فقالت: «كنت سأعثر عليك مرة أخرى... بأي شكل».

ارتفع التصفيق مرة أخرى، فنهض آش وهو يشدّ تشيلي معه قائلاً: «أظن أن الوقت حان لكي نذهب قبل أن يباغتونا ويمنعوك من الذهاب».

فقالت: «لكن لا يمكنني الرحيل فأنا هنا لأغني. عليّ أن أرى جوردن لأشرح موقفي... هذا إذا رضي بأن يتحدث إليّ مرة أخرى».

فقال: «لا بأس عليه. أنجي ستشرح له الأمر».

فسألته بدهشة: «هل تعرف أسرة ويستليك. إنهم أصدقاؤك؟ طبعاً لا بد أنهم كذلك».

فقال ضاحكاً: «في الواقع أقاربي. والدة أنجي ووالدتي ابنتا عم. لماذا؟ هل ظننتني متطفلاً؟».

- لا أدري ماذا ظننتك. كل ما أراه هو أنت وكل ما كنت أسمعه هو اسمك. كان الأمر معجزة.

وسكتت فجأة وقد اتسعت عيناها ثم أردفت: «ما عدا أن الأمر ليس كذلك... صحيح؟ لم يكن حتى مصادفة. أنت تدبرت أمر وجودي هنا يا آش بريتان... أنت الذي رشحتني للغناء».

فقال: «قليلاً. هل لديك مانع؟».

فأجابت: «كلا باعتبار أنني كنت سأتصل بلورنت غداً وأتوسل إليه كي يخبرني أين أنت».

فقال برقة: «حبيبتي، يا حبيبتي الحلوة. يمكننا أن نعود إلى بيتك، لكنني أفضل ألاّ أقابل شريكاتك في الشقة الآن، فأنا أريدك لنفسي فقط».

حدّقت إليه وقالت: «حتى أنك تعرف مكان إقامتي».

فأومأ وقال: «طلبت من فيكتور شريكي السابق، أن يراقبك. كنا في الجيش معاً فضلاً عن أننا صديقان حميمان. كنت خائفاً للغاية من أن تتزوجي ذلك المعتوه الذي جاء يبحث عنك فقط لتغيظيني. كنت متلهفاً إلى أي معلومات عنك... لمعرفة أنك بخير... وأنك سعيدة».

- وماذا قال لك؟

- في البداية قال نعم ثم قال ليس تماماً.

- حسناً، كان كلامه صحيحاً. على أيّ حال قلت أكثر من مرة إني بحاجة إلى من يحميني. لذا، لا يمكنني أن أشكو إذا حدث ذلك.

سألها: «أنا أقيم في فندق مؤقتاً. فهل سترافقينني إلى هناك؟».

فقالت: «سأذهب معك إلى أي مكان ما دمنا معاً».

- أضمن لك ذلك. في الواقع، لن يسرّني أبداً أن تغيبي عن ناظري.

فقالت: «لن أفعل».

وخرجا إلى الليل...

* * *

توقعت أن ترى غرفة مناسبة، فهي تعلم أن إرضاء آش صعب، لكن ليس جناحاً في أفخم فنادق المدينة.

قالت وهي تنظر من حولها: «حسناً جداً. هل أنت واثق من أنك أعدت نصيبك من المال؟».

هزّ كتفيه: «سمعت ذلك بنفسك من فم أبيك. كما يمكنك أن تدققي لاحقاً في حسابي المصرفي».

فقالت: «لاحقاً؟ ما أجمل وقع هذه الكلمة على السمع».

- أتريدين أن تتفرجي على المكان؟

كان السرير في غرفة النوم فسيحاً للغاية، فوجدت صعوبة في أن تلحظ أي شيء آخر. لكن تشيلي قررت أن تحاول.

قالت: «يا إلهي! كم محطة في هذا التلفزيون؟».

فقال: «ليس لدي فكرة، ولعلي لا أفكر في معرفة ذلك».

شعرت تشيلي بالخجل حين لاحظت أن نظرته تراقبها. سارت إلى صف من الخزائن ثم فتحت باب إحداها، وقالت وهي تبتلع ريقها: «أراك أحضرت أكثر من مجرد قميص وسروال هذه المرة».

- جئت لإقامة طويلة نوعاً ما.

- هذا ما يبدو.

وأخذت أصابعها تتحسس ما على القضيب الحديدي، فاصطدمت بنسيج حريري: «ما هذا؟».

وانزلق الثوب الأسود فأمسكت به وهي تنظر إلى آش غير مصدقة: «هل... أخذت هذا؟».

فقال بهدوء: «أردت أن أحتفظ بشيء منك. ظننت أنك لن تفتقديه.

www.elromancia.com

وهو تذكار جيد لي. هل كنت تفضلين لو ألقيت به في القمامة؟».

- آه، كلا. في الواقع، ربما كنت لأرتديه مرة أخرى في مناسبة ما. قبل عيد مولد... ذكرى سنوية... سيثير مزيداً من الذكريات.

وتقدّمت منه وقد احمرت وجنتاها ثم ارتمت بين ذراعيه المفتوحتين لها.

قالت: «إذن أنت لست مجرد صورة في مخيلتي. كنت أتساءل عن ذلك».

فأجاب: «أنا حقيقي تماماً».

- أتعلم؟ كنت أشعر بتوتر في أعصابي. أليس هذا سخيفاً؟

- كلا. أنا أيضاً كنت متوتراً.

- هل تعاني من ضغط نفسي؟ ماذا حدث لعلبة السجائر؟

- لقد تركت التدخين... من باب إصلاح الذات. إذا كنت أريد أن أصبح رب أسرة، فعليّ أن أعيش لأستمتع بذلك.

- وهل هذا ما تفكر فيه؟

فقال ببطء: «كان هذا في ما مضى. أما الآن فأتساءل عما إذا كان هذا منصفاً».

حملقت تشيلي فيه: «لقد أعدت مبلغاً ضخماً وتحملت كل هذا العناء لكي تعثر علي... ثم بدّلت رأيك؟ لا أصدق ذلك. إلا إذا قررت أنك لا تريدني، رغم كل ما جرى».

- أنا نفسي لا أصدق ذلك. لكنني أحاول ألاّ أكون أنانياً يا تشيلي. لقد منحك الله موهبة الغناء، ورأيت مدى تجاوب الجمهور معك هذا المساء. لقد ملكت قلوبهم ما جعلني أفكر بأنانيتي إذا ما أبعدتك عن هذا كله. وهل زواجك مني سيكون بديلاً منصفاً؟ لقد نجوت لتوك من أبيك، فهل تريدين حقاً أن تستبدليه بزوج قبل أن تلتقطي أنفاسك؟ وأي بديل يمكنني أن أقدمه لك؟

وأحاط وجهها براحتيه: «أريدك أن تحصلي على فرصتك في الحياة، يا

تشيلي، على الحياة التي قلت إنك تريدينها».

بادلته ابتسامته وعيناها تفيضان بالحنان، وقالت وقد خنقتها غصة: «أنت هي الحياة التي أريدها، إذا كنت لا تزال تريدني. أما الغناء فهو ثانوي. رغم أنني أظن أنه سينفع أثناء تعطلك عن العمل مؤقتاً».

- لا تخبري أبي أنني من دون عمل. فهو يظن أني شريكه في مشروعه الجديد وهو تأجير المراكب. لماذا تظنيني عدت إلى حياة الاستقرار؟ لأنني نلت ما فيه الكفاية من المغامرات والتشرد وعدم الإقامة في مكان محدد أكثر من أيام معدودات. أريد أن أستقر وأرتاح أنا أيضاً. لهذا، كنت آخر مهمة لي».

وطبع قبلة على شعرها، فوضعت راحتها على صدره: «إلى أين سنذهب من هنا إذن؟».

- ما رأيك في أن نحسّن تعارفنا ببعضنا البعض؟... فلا أسرار بيننا، ولا أنصاف حقائق؟ نحن وحدنا فقط.

- يبدو هذا رائعاً. ما الذي يدور في ذهنك؟

- أبي مهتم بهذا المركب الجديد وهو يريدني أن أجربه في جزر البهاماس. إنني... أرجو أن ترافقيني.

فتنهدت بسعادة: «يبدو الأمر أشبه بالفردوس. كما أني سأتعلم الطهي».

فقال ضاحكاً: «يعجبني هذا. لكنني كنت جاداً تماماً في ما قلته لك عن غنائك. أريد أن تكوني حرة في تقرير مستقبلك. وسيكون من الخطأ أن أقيدك».

فقالت: «يمكنني أن أكون زوجة عاملة، حتى أرزق بالأطفال على الأقل. حينذاك سأهتم بأغاني الأطفال».

- يا حبي.

وعانقها، ثم قال: «ما زال لدينا مشكلة واحدة، وهي الاتصال

بأبيك. فهو لن يرضى بهذا».

فقالت برقة: «كلما تركت الناس يذهبون، كلما رغبوا بالعودة إليك. لم يتعلم هذا بعد لكنني أرجو أن يفعل».

- وأنا أيضاً أرجو ذلك، وأحلم به.

دنت منه أكثر وهي تهمس: «وسنحقق أحلامنا كلها، يا حبيبي... معاً».

www.elromancia.com
مرمورية